10me Année No. 449

Lundi - 9 - 2 - 1942

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
٢ ثمن هذا العدد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٤٩ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٣ محرم سنة ١٣٦١ — الموافق ٩ فبراير سنة ١٩٤٢ » السنة العاشرة

الفهـــــرس

كيف عالج الإسلام الفقر



ألق عن عينيك هذا المنظار السحرى الذى صنعه الأدب والفن ؛ ثم انظر إلى الحياة فى شتى مظاهرها تجدها معركة هائلة على القوت لا تنقطع ولا تفتُر . وهذه المعركة التى لا ندرك لها طولاً فى الدهر، ولا عرضاً فى الكون ، لا تنفك رحاها تلفظ على جنباتها قتلى وجرحى ؛ وأولئك هم الذين خذلهم الضعف فماتوا شهداء ، أو عاشوا فقراء . أما الموت فلا حيلة لأحد فيه ؛ وأما الفقر فهو الداء العياء الذى خامر الإنسانية منذ طبعها الله على القدرة والعجز ، وبرأها على الكمال والنقص . وهذا الداء كان وما زال موضوع الطب الاجتماعى

يخفف بُرَحاءه بالمُرقـد، ويكفكف غلواءه بالتمائم؛ ولـكن دواءه الناجع ظل من وراء إمكانه حتى وصفه الله فى دينه، وطبقه فى شرعه، فانحسمت العدوى وانكشفت البلوى وبرئت العلة.

فإذا رأيت فى وطن الإسلام طرائد للفقر وفرائس للجوع فصدِّق الله وكذِّب نفسك. إن ما ترى لم يعد ذلك الوطن الذى أشرق بنور الله وتعطر بريح الجنة، إنما هو طلل ترحَّل عنه أهله، وصريض فرط فيه أساته، ومسلمون انطمست فيهم معانى القرآن فتعبدوا بألفاظه، وحاكمون أعضلت بهم أصول الحكم فاكتفوا بصوره. فلو كان للاسلام رأى فى الحكومة وسلطان على الأمة لكان الوطن كله أسرة، والناس جميعهم إخوة، تجد فيهم الفقير ولا تجد المحروم، وترى بينهم الضعيف ولا ترى المظلوم؛ لأن شريعة الله جعلت بين الغنىّ والفقير سبباً هو البر، وأنشأت بين القوى والضعيف نسباً هو الرحمة!

***

عالج الإسلام الفقر علاج من يعلم أنه أصل كل داء ومصدر كل شر. وقد أوشك هذا العلاج أن يكون بعد توحيد الله أرفع أركان الإسلام شأناً، وأكثر أوامره ذكراً، وأوفر مقاصده عناية. ولو رحت تستقصى ما نزل من الآيات وورد من الأحاديث فى الصدقات والبر، لحسبت أن رسالة الإسلام لم يبعث بها الله محمداً آخر الدهر إلا لتنقذ الإنسانية من غوائل الفقر وجرائر الجوع. وحسبك أن تعلم أن آى الصيام فى الكتاب أربع، وآى الحج بضع عشرة، وآى الصلاة لا تبلغ الثلاثين؛ أما آى الزكاة والصدقات فإنها تُربى على الخمسين

كأنما اختار الله لكفاح الفقر أشح البلاد طبيعة وأشد الأمم فقراً ليصرعه فى أمنع حصونه وأوسع ميادينه؛ فإن الفقر إذا انهزم فى قفار الحجاز كانت هزيمته فى ريف مصر وسواد العراق أسرع وأسهل. ثم اختار الله رسوله فقيراً ليكون أظهر لقوته، كما اختاره أميًّا ليكون أبلغ لحجته

كانت جزيرة العرب إبَّان الدعوة العظمى مثلاً محزناً لما يجنيه الفقر على بنى الإنسان من تَـضرية الغرائز، وتمزيق العلائق، ومعاناة الغزو، ومكابدة الحرمان، وقتل الأولاد، وفحش الربا، وأكل السُّحت، وتطفيف الكيل، وعنت الكبراء، وأثرة الأغنياء، وفقد الأمن، وانحطاط المرء إلى الدرك الأسفل من حياة البهيم. فلما أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق كانت معجزته الكبرى هذا الكتاب المحكم الذى جعل هذه الأشلاء الدامية جسماً شديد الأسر عارم القوة، ونسخ هذه النظم الفاسدة بدستور متين القواعد خالد الحكمة؛ ثم كانت بوادر الإصلاح الإلهى أن قلَّم أظفار الفقر، وأسا كلوم الفقراء، وقطع جرائر البؤس، فألف بين القلوب، وآخى بين الناس، وساوى بين الأجناس، وعصم النفوس من القتل الحرام، وطهر الأموال من الربا الفاحش؛ ثم عالج الداء الأزلى نفسه بما لو أخذ به المصلحون لوقاهم شرور هذه الحروب التى أمضَّت حياة الناس، وكفاهم أخطاء هذه المذاهب التى قوضت بناء المجتمع: عالجه بالسفارة بين الغنى والفقير على أساس الاعتراف بحق التملك، والاحتفاظ بحرية التصرف، فلا يُدفع مالك عن ملكه، ولا يعارَض حر فى إرادته.

إنما جعل للفقير فى مال الغنى حقاً معلوماً لا يكمل دينه إلا بأدائه؛ ذلك الحق هو الركن الثالث من الأركان الخمسة التى بُنى عليها الإسلام، فلا هو تطوع ولا نافلة ولا فضلة. وليست الزكاة بالقدر الذى يخفى أثره فى حياة الفقير، فهى ربع العشر فى المال، وما يُقدَّر بنحو ذلك فى غيره. فإذا جُبيت الزكاة بالأمانة على حسابها المقدَّر، ووُزعت بالعدالة على نظامها المفروض، شفت النفوس من الحقد، وأنقذت المجتمع من البؤس، فلا تجد سائلاً فى شارع، ولا جائعاً فى بيت، ولا جاهلاً فى عمل.

ولم يقف الإسلام فى علاج الفقر عند فرض الزكاة، وإنما شرع للبر فى العبادات والمعاملات موارد لا يأسن لها معين ولا ينقطع عنها رافد:

يحنث الرجل فى يمينه فيكفر بإطعام عشرة مساكين من أوسط ما يطعم أهله، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة.

ويقسم ألا يفعل شيئاً، ثم يرى أن فعله خير من تركه، فيكفر بإطعام المساكين ثم يفعله.

ويظاهر من زوجه ثم يبدو له أن يعود، فيطعم ستين مسكيناً أو يحرر رقبة

ويرمى فيقتل نفساً عن غير عمد ، فيطعم أو يعتق فضلاً عن أداء الدية

ويعجز عن صوم رمضان لسَقَم أو هرَم ، فيفطر ويطعم كل يوم مسكيناً .

و يفطر عامداً فى رمضان من غير علة ، فيطعم ستين فقيراً أو يفك رقبة .

ويخل الحاج بشرط من شروط الحج فيكفر عنه بذِبْح يقدمه للمساكين .

ويتجرد عن المخيط فإذا لبس شيئاً منه لزمته الفدية .

ويُرزق الرجل غلاماً فيعقّ عنه بذبيحة يطعمها الفقراء يوم أسبوعه .

ويقبل عيد الصوم أو عيد الحج فيجب على الأغنياء أن يرفهوا عن الفقراء بزكاة الفطر أو بلحوم الأضاحى .

وينذر المسلم لله نذراً فيوجب الدين عليه أن يفى به براً بالفقراء وعوناً للمساكين .

ويعجز الرجل عن تكاليف العيش فيوجب الدين على من يرثه بعد موته أن ينفق عليه ! فينفق الابن على الأب، والأب على الابن، والأخ على الأخ، والزوج على الزوج، عملاً بالقاعدة الإسلامية الحكيمة : (الغُرم بالغُنم) . ولقد رأى الفاروق عمر بن الخطاب يهودياً لا يقدر على شىء، فوقف به ثم قال له : ما أنصفناك أيها الذمي! أخذنا منك الجزية فى قوّتك ، فيجب ألّا نضيعك فى ضعفك . ثم أجرى عليه من بيت المال ما يمسك نفسه

وجاءت الشريعة بالوصية لمن حضره الموت : يوصى بثلث ماله لوجوه البر فضلاً عن الوصية للوالدين والأقربين

ونوهت السُّنة بالصدقة الجارية ، فكانت بركة من بركات الرسول الكريم على المرضى والزَّمْنَى وذوى الخصاصة وأبناء السبيل وطلاب العلم وحجاج البيت ، بما وقف عليهم أولو الفضل والسعة من المستشفيات والملاجئ والخانات والزوايا والأربطة والمدارس والمساجد والمكاتب . وكفى شهيداً على أثر (الصدقة الجارية) فى علاج الفقر وإشاعة البر، أن تحصى الأوقاف فى الأقطار الإسلامية ؛ ثم ننظر فيما حُبست عليه من وسائل الإصلاح ووجوه الخير؛ ثم نحكم على ما قدمت لذوى الحاجات والعاهات من إحسان لا يغبُّ وإسعاف لا يغيب

كل أولئك إلى ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسوله من الحث على الإنفاق فى سبيل الله ، والترغيب فيما عند الله من حسن المثوبة ، بفنون من القول الرائع والتشبيه المحكم

* * *

كذلك عالج الإسلام الفقر من طريق آخر غير طريق الزكاة والصدقات والكفارة : عالجه من طريق الكسر من حدة الشهوة ، والكف من سَورة الطموح ، والغضّ من إشراف الطمع ؛ فرغّب الغنى فى الزهد ، وأمر الواجد بالقناعة ، ومدح الفقير بالتعفف .

* * *

ذلك ما عالج به الإسلام داء الفقر الذى أعيا الإنسانية منذ الدهر الأول . وهو على إحاطته وبساطته ونجوعه ينهض وحده دليلاً على أفَن الذين يقولون إن دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية ، وشريعة نابليون أصلح للناس من شريعة الله ، ونظام مَرْكس أجدى على العالم من نظام محمد .

فلو أن كل مسلم أدى حق الله في ماله ، ثم استقاد لأريحية طبعه وكرم نفسه ، فأعطى من فضل، وواسى من كفاف، وآثر من قلة ؛ ثم قيض الله لهذا كله من ولاة الأمر من يجمعه على أكمل حال ، ويدبره على أفضل وجه ، ويوزعه على أعدل قسمة ، لكان ذلك عَسِيّاً أن يُقر السلام فى الأرض ، ويُشيع الوئام فى الناس ، فتهدأ ضلوع الحاقد ، وترقأ دموع البائس ، ويسكن جوف الفقير ، ويذهب خوف الغنى ، ويتذوق الناس فى ظلال الرخاء ، سعادة الأرض ونعيم السماء !

احمد حسن الزيات

ملحق الممتاز

ضاق هذا العدد عن طائفة من المقالات القيمة لصفوة من كبار الكتاب ، سننشرها فى العدد المقبل تسجيلاً لما جادت به الخواطر الكريمة فى هذه الذكرى العظيمة

لا بدّ من دين الله لدنيا الناس

لإمام المسلمين الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى



عودة يوم الهجرة للنفوس المؤمنة، كعودة الربيع للجسوم الحية. فالربيع ينشر فى الكون الحياة والجمال، فيتجدد البالى، وينتعش الذاوى، ويتبهّج الكئيب؛ ويوم الهجرة ينشر فى القلوب النور والجلال، فيقوى الخائر، ويهتدى الحائر، ويتذكر الغُفلان. وإذا كانت الحواس لا تنتفع بالربيع إذا لم تكن شاعرة، فإن النفوس كذلك لا تنتفع بمعنى الهجرة إذا لم تكن ذاكرة. والذكرى تنفع المؤمنين إذا اقتبسوا منها الهداية والتمسوا فيها العظة؛ أما إذا كان قصارى أمرنا فى الاحتفال بحوادثنا الكبرى، وشخصياتنا العظمى، أن نكتب ونخطب فما أصبنا الغرض.

إن ذكرى الهجرة هى ذكرى وضع الأساس لهذا البناء الإسلامى الشامخ الذى انبسط ظله على أكثر الأرض، وانتشر نوره فى ظلام الوجود، وأوت الإنسانية منه إلى ركن شديد بالعلم، أمين بالعدل، منيف بالحضارة؛ فالمسلمون أحرياء أن يجعلوا احتفالهم بهذه الذكرى العظيمة تقديساً للدين الذى كانت فى سبيله، وتمجيداً للمبدأ الذى قامت عليه، وتأييداً للشرع الذى تكشفت عنه. وتقديس الدين هو الانقياد له، وتمجيد المبدأ هو الإخلاص فيه، وتأييد الشرع هو العمل به. وما كان الناس فى عهودهم الخالية بأحوج إلى هدى الله منهم فى هذا العهد؛ فقد طغت فيه المادية على الشعوب حتى تمادت، وأفرطت القوة على الدول حتى تفانت، وغررت المذاهب الإلحادية بالأفهام السقيمة فلبّسوا على الناس الحق، وشبهوا على القادة الطريق، حتى زُلزلت الأرض بمن عليها، وخشينا على صرح المدنية والفضيلة أن ينقضّ. ذلك إيذان من الله للناس بأنهم فسقوا عن أمره فجافتهم رحمته، وحادوا عن سبيله فحق عليهم عذابه. «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»

لا يكشف عنا ما غشينا من هذه الغمة العميمة إلا العمل بشريعة الإسلام والاحتفاظ بتقاليد الشرق الصالحة. والرجوع إلى شرع الله فى أمور الدنيا من بدائه العقل وموجبات الفطرة؛ لأن الله جلت قدرته هو الذى خلق الناس ودحا الأرض، فهو أعلم بغرائز خلقه وأسرار كونه؛ وهو أعلم بما سينشأ عن تصادم الغرائز من نزاع، وما سيشتد على خيرات الأرض من تنافس؛ وهو أعلم بما سينتجه تفاوت الناس فى القدرة والحيلة من بغى الأقوياء على الضعفاء، وجور الأغنياء على الفقراء؛ فشرعه وهو الخبير البصير حقيق أن يكون حلاً حاسماً لمشكلات الحياة، وعلاجاً شافياً لأدواء المجتمع، ودستوراً جامعاً تنتظم عليه شؤون الأفراد وأحوال الأمم فى كل أرض وفى كل جنس. أما تشريع الناس للناس فهو عرضة للنقص أو للخطأ من جهة الجهل أو من جهة الهوى أو من جهة التطبيق؛ وهو إن صلح لعصر لا يصلح لغيره، وإن أفاد فى أمة لا يفيد فى أخرى. فما بالنا ندع حكم الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ثم نحكّم فى أنفسنا وأموالنا وأحوالنا شرائع قد لا تتفق مع عقائدنا، ولا تأتلف مع عوائدنا، ولا تستطيع أن تحيط بما أحاط به الله من خفايا الصدور ومفاجآت الغيب؟!

لا يزكو بأهل القبلة أن يولوا وجوههم شطر المغرب يأخذون عنه من المذاهب والنظم والتقاليد ما أضلّ به أهله. إنما النور فى الشرق مطلع الأديان، والهدى فى شريعة الله مُنزل القرآن، والدليل فى سنة الرسول صاحب الهجرة، والسبيل ما سلكه السلف الصالح فأوفى بهم على الغاية.

والرجاء فى مولانا الفاروق أعز الله ملكه أن يبنى إصلاح الأمة على قواعد الدين، وأن يُجرى قضاء الحكومة على شريعة الله، فهو بما آتاه الله من العلم والحكمة والسلطان أحق بأن يبدأ للأمة الإسلامية هذا التاريخ الجديد

أسأل الله ولى المؤمنين وأحكم الحاكمين أن يسدّد خطانا فى الطريق المستقيم، وأن يكشف عنا وعن الناس هذا الكرب العظيم

محمد مصطفى المراغى

الأوامر المختومة
في المأثورات النبوية

للأستاذ عباس محمود العقاد



يكثر في الحروب الحديثة ذكر الأوامر المختومة التي تصدر إلى قوّاد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو في عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض، إلى أمثال ذلك من العلامات التي تعين بها الجهات

ويتفق في أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعاً على سر البعث أو موصياً به ورجاله جميعاً يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون في غزوة أو في استطلاع أو في مناورة إلى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات ، وهنالك تصدر الأوامر التي لا بد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ ، ولا خوف من كشفها في تلك الساعة لصعوبة الاستعداد الذي يقابلها به العدو إذا انكشفت له قبل تنفيذها بفترة وجيزة ، ولا سيما إذا كانت الحركة من حركات البحار

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة

وقد عرفت في المأثورات النبوية على أتم أصولها التي تلاحظ في أمثالها ، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه أن «سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك ، وامض لأمر فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم »

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثاً وقديماً عند بداية الدعوات على التخصيص

فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبي عليه السلام ؛ فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما في البوح به من الخطر المحظور ، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون ، والاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان سنة حكيمة من سنن النبي عليه السلام ، وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن بالاتباع

ومما لوحظ في كتاب النبي لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ووصاته ألا يكره أحداً منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته . وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه إذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه ، بل لعله ينقلب إلى النقيض فيحرف الأخبار عمداً ، أو يتلقاها على غير اكتراث ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه

ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجواسيس ، وفي امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة حتى تطمئن إلى صحته قبل الاعتماد عليه

وفي الحرب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين

فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطيارات وراء الصفوف فيتسللون إلى مراكز المواصلات ويعيثون بين القرى المعزولة فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد

قيل في الإعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير ، وقيل في انتقادها والتنبيه إلى خطرها كثير

فمن دواعي الإعجاب بها أنها أفادت في قطع المواصلات وإشاعة الذعر وتضليل المدافعين ، وأنها شيء جديد في شكله وإن لم يكن جديداً في غايته ومرماه

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية ، فهي تستلزم أن يكون الرائد غيوراً على عمله مستحمساً لإنجازه رقيباً على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه ، فليس أيسر له إذا هو انفرد وأعوزته الرغبة في إنجاز عمله من أن يستأسر في أول مكان يصل إليه من بلاد الأعداء طلباً للسلامة ولا عقاب عليه ولا هو يتقى العقاب إلى نهاية القتال . ثم يتعلل بما شاء من المعاذير إن وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه ، وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه في أمثال هذه الفوضى

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة إن لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول إليهم ، وهي لهذا أحرى أن تحسب من وحي الطريق وإلهام العقائد لا من النظام الذي يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود . فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنوات ينفخون في نفوس الناشئة جذوة البغضاء ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذي يغني عن الرقابة ساعة التنفيذ لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب

وها هنا تتجلى حكمة النبي عليه السلام في اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والإكراه .

فهذه « أولاً » بعثة منفردة لا سبيل إلى الإكراه الفعال بين رجالها إذا أريد .

وهي « ثانية » بعثة استطلاع لا يغني فيها عمل الكاره المقسور ، وألزم ما يلزم العامل فيها إيمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه . فإن أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شيء .

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع فقد كان النبي عليه السلام عليماً بمزاياه معنياً به غاية العناية يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون في حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية ويحول من ثم دون الانتصار عليه

وكان عليه السلام مثلاً بين قواد الجيوش الذين جعلوا عدة الاستطلاع مقدمة على عدة التعبئة ، ومن هؤلاء نابليون الكبير

قلنا في مقال كتبناه بالرسالة لمثل هذه المناسبة منذ سنتين :

« لم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون ، وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال ، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر لأنهما يذكران قريشاً ولا يذكران أبا سفيان علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء ، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور التي ينحرونها كل يوم فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذي يحتاج إليه . وكان صلوات الله عليه إنما يعول في استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس إلى العلم بفجاجه ودروبه ، ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ القتال ، فيسمع من كل فيما هو خبير به ، ولا يأنف من الأخذ بنصيحة صغير أو كبير »

ونحن نكتب هذا المقال والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون في هذا الميدان حين أصيب في وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم

فمن أسباب هزيمة نابليون إهماله النصائح التي سمعها في مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل في الأرض الروسية

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها دياراً يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذي كان كما أسلفنا شديد التعويل

أما هتلر فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة

فقد اشتهر الآن أنه كان في مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم

واشتهر الآن أنه أخطأ في استطلاعه أخبار القوم إذ خيل إليه أن الشعب الروسي يتحفز للثورة ويترقب الإغارة عليه لنصرة المغير كائناً من كان ، ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافي وهو عنصر الجرمان

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ في جميع غزواته وكشوفه . ولعلنا نفهم كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين .

عباس محمود العقاد

مع المفتي الأكبر



فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية ، علم من أعلام الفقه الإسلامي في مصر والشرق ، يمتاز بعلم واسع ، ونظر صائب ، وفكر ثاقب ، وقد رأى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر أن ينتفع التعليم العالي بمواهبه ، فأسند إليه منصب « المراقب العام » على الكليات الأزهرية الثلاث ، فأصبح له بهذا المنصب ، وبشخصيته العلمية الجليلة ، مشاركة في الإشراف العلمي على شئون التعليم ، يرجى أن تحقق آمال الأستاذ الأكبر في الإصلاح

وفضيلته ـ إلى جانب ذلك ـ عضو بارز من أعضاء « جماعة كبار العلماء » له فيها نشاط محمود ، ورأي مشهود ، ومقام كريم

* * *

زرته في داره الحديثة الطراز التي بناها في ضاحية « كوبري القبة » فجاءت مثلاً رائعاً لعظمة البناء ، وجمال التنسيق ، ودليلاً حاضراً على ما يستطيعه « العالم الديني » من جمع بين تقوى الله ، وأبهة الحياة

تلقاني فضيلته مرحباً ، وكنت منه على موعد ، فلما استقر بي المقام ذكرت له أن « الرسالة » تعتزم أن تصدر عددها الهجري الممتاز ، ويسرها أن تسفر بينه وبين قرائها الكرام في جميع أنحاء الشرق العربي بحديث يتصل بعمله في الإفتاء ، والرقابة العامة ، وجماعة كبار العلماء

فأبدى استعداداً كريماً لإجابة هذه الرغبة ، وأثنى على « الرسالة » ثناء جميلاً ، ذاكراً عنايتها الفائقة بشئون العلم والدين ، ودعوتها القوية للثقافة الإسلامية ، وقال : إنه يعلق على ذلك آمالاً عظيمة ، فإن للرسالة في نفوس المسلمين وأهل العروبة جميعاً مقاماً عظيماً ومنزلة سامية

فأجزلت لفضيلته الشكر على استعداده وحسن ثنائه ، ثم دار الحديث بيني وبينه على هذا النحو :

١ — في الإفتاء

قلت لفضيلته : إن منصب الإفتاء منصب جليل له بالفقه الإسلامي صلة عملية وثيقة ، وقد رسم الفقهاء المتأخرون للمفتي رسوماً لا يجيزون له أن يتعداها ، وألزموه أن يفتي بآراء عينوها له ، وكثيراً ما يذكرون الحكم ويتبعونه بقولهم : « وبه يفتى » ، أو « وعليه العمل » ونحو ذلك ؛ فهل تلتزمون فضيلتكم هذه الرسوم فيما تصدرون من فتوى ، ولا تخرجون عن هذه الأقوال ؟

فأجاب قائلاً : إن الفتاوى التي أصدرها على نوعين : نوع يتصل بالقضاء الشرعي والجهات الرسمية ، وهذا أفتي فيه بما هو الراجح من مذهب أبي حنيفة ، لأن المستفتي يطلب ذلك في استفتائه ، ولأن هذا هو المذهب الرسمي في مصر ، ولو لم أتبع هذه الطريقة لاصطدم القضاء بالفتوى

أما النوع الثاني فهو الفتاوى التي أصدرها في استفتاءات غير رسمية أو واردة من البلاد الأخرى ، وأنا في هذه الفتاوى لا أتقيد برسم رسم ، ولا بقول من الأقوال في مذهب الحنفية ، وإنما أختار القول الذي أرى دليله راجحاً وأبين سبب رجحانه عندي ، وقد أذكر إلى جانبه الأقوال الأخرى إذا طلب المستفتي ذلك أو كان الأمر يستدعي ذكرها

قلت له : أتلتزمون في ترجيحكم دائرة المذاهب الأربعة المعروفة؟

فقال : أنا لا أتقيد بالمذاهب الأربعة ، ولكني لا أخرج فيما أفتي به عن مذاهب العلماء من السلف والخلف . والسبب في ذلك أن الفقه الإسلامي غني جداً بأقوال العلماء وآرائهم فلا تكاد تجد مسألة من المسائل إلا وقد تعددت آراء الفقهاء فيها

بحيث لا تستطيع أن تجزم بأن رأياً تراه لم يقل به أحد العلماء من قبل ، فليس على الناظر فى هذه الثروة الطائلة إلا أن يختار أرجحها مصلحة ، وأقواها دليلاً ، وأشبهها بروح الشريعة ، وهذا هو الذى أسير عليه

سألت فضيلته : أ كان من المفتين الذين سبقوا فضيلتكم فى دار الإفتاء المصرية من جرى على هذه الطريقة التى تسيرون عليها ؟

فقال : إن الفتاوى التى تحتفظ بها سجلات دار الإفتاء لا تدل على ذلك ، وإن كانت تدل فى كثير من الأحيان على فقه جيد ، ونظر سليم

قلت له : وفتاوى الأستاذ الإمام محمد عبده ؟

فقال : إن الناحية التى تجلت فيها مواهب الأستاذ الإمام الشيخ « محمد عبده » كانت هى إدراكه الصحيح لمعانى القرآن الكريم ، وفهمه الدقيق لأغراضه ، وتذوقه لأسلوبه ومعجز بيانه ، مع بصر عظيم بأحوال الناس ، وعبر التاريخ ، وأسرار تقدم الأمم والشعوب ، وسنة الله فى جميع الكائنات ؛ يؤازر ذلك قلب جرىء ، وجنان ثابت ، وعقل متصرف . وكان — رضى الله عنه — يعتمد فى فتاواه على إدراك روح الشريعة ، وتبين أغراضها العامة ، لا على مناقشة المذاهب ، وترجيح أقوال الفقهاء ؛ ولذلك تأتى فتاواه غالباً مختصرة ، وقد تثير خلافاً بين أهل العلم . ومن أمثلة ذلك أنه أفتى فتواه المشهورة بجواز لبس « البرنيطة » ، فقامت من أجلها ضجة هائلة بين العلماء وأهل الأزهر يومئذ ، فلما أردت أن أفتى فى هذا الموضوع انتفعت بموضع العبرة فيه ، فأخرجت فتواى التى تجيز لبس « البرنيطة » إخراجاً فقهياً مؤيداً بأقوال العلماء ، جارياً على طريقتهم فى الاستدلال والترجيح ، وبذلك لم يستطع أحد أن يشغب على هـذه الفتوى أو يثير فى شأنها جدالا

٢ — فى الرقابة العامة

شكرت فضيلة المفتى الأكبر على هذه المعلومات القيمة ، ثم توجهت إلى فضيلة المراقب العام أسأله عن آماله فيما يتصل بالتعليم الأزهرى العالى ، وعن أسلوبه فى العمل على تحقيق هذه الآمال فأجاب قائلاً :

— إننى أرجو أن تخرج لنا الكليات الأزهرية فى نواحيها المختلفة علماء يمتازون بميزتين :

إحداهما : القدرة على فهم مسائل العلوم فهماً صحيحاً واضحاً لا على استظهارها فحسب ؛ وإن لدينا من آثار الأولين لثروة عظمى فى سائر العلوم الدينية والعربيـة والكونية : فى اللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب والفقه والأصول والتفسير والحديث وعلوم التاريخ والمنطق والفلسفة وأصول الدين والأخلاق وغيرها . لدينا كنوز مليئة بالخيرات تحتاج إلى من يفتح مغاليقها ويستفيد منها ؛ والأزهرى هو الذى يستطيع أن يفتح هذه المغاليق ، ويثير دفائنها ، وهو المطالب بأن يأخذها من مصادرها ، ويستخرجها من منابتها فى صبر ومثابرة وحسن إدراك

والوسيلة إلى ذلك هى غرس المحبة للعلم فى نفوس الطلاب والأساتذة فإن الذى يذوق لذة العلم لا يعدل بها لذة أخرى ، ولا تصرفه عنها صعوبة من الصعاب ، والشعور بلذة البحث أول أمارات النجاح

الميزة الثانية التى يجب أن يمتاز بها العالم هى القدرة على التصرف فيما يعلم ، لإفادة الناس به ، وتطبيقه عملياً فى جميع شئون الحياة

والوسيلة إلى ذلك فيما أرى هى تشجيع الكفايات العلمية الممتازة ، وبث روح العمل والإنتاج فى محيط أهل العلم

فإذا أخرجت الكليات هذا العالم الذى يمتاز بهاتين الميزتين أمكننا أن نرى رجالاً يدرسون قواعد البلاغة ومسائل الأدب ويكونون بلغاء وكتاباً وأدباء ، وأن نرى رجالاً يدرسون أصول الفقه ويكونون فقهاء ومرجحين ، وأن نرى علماء يستطيعون أن يدافعوا عن الإسلام ، ويردوا هجمات أعدائه بأسلوب هذا العصر وهكذا …

٣ — فى جماعة كبار العلماء

قلت لفضيلته : لقد اطلع قراء الرسالة على تقرير اللجنة التى ألفتها جماعة كبار العلماء برياسة فضيلتكم للنظر فى المقترحات الهامة التى رفعها إليها بعض أعضائها ، فما الذى ترونه شخصياً فى هذه المقترحات ، ومتى يتم إعداد الوسائل للأخذ فى تنفيذها ؟

فأجاب فضيلته :

لقد سررت بهذه المقترحات العظيمة منذ أول لحظة ، وأعلنت رأيى هذا فى جلسة الجماعة الموقرة التى عرضت فيها هذه المقترحات

وقلت : إن جماعة كبار العلماء منذ تكوينها مطالبة بهذه الأعمال كلها ، فإذا كانت قد تأخرت فى الماضى عن القيام بهذا الواجب فلا ينبغى لها أن تتأخر بعد الآن ، ولا سيما فى عصر حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح الغيور على دينه : فاروق الأول أعزه الله ، وبأشراف الرجل العالم المصلح المؤمن بفكرته : فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى .

وهذه المقترحات لا يتردد أحد فى إدراك ما لها من فائدة جزيلة ، ولا فى وجوبها على جماعة كبار العلماء ، فتلك طوائف الأمة تتشاجر وتتشاحن باسم الدين فى كثير من الأشياء : أسنة هى أم بدعة ؟ أمن الدين أم ليست من الدين ؟ وهذه كتب التفسير والحديث ينظر فيها من يستطيع تمييز الغث والسمين ومن لا يستطيع ، وهذه شئون المعاملات التى جدت وتجد للناس ، وهم محتاجون إلى معرفة حكم الشريعة فيها بطريقة تقضى على النزاع ، وتقطع أسباب الجدل والخصومة ، وقد اتجهت أفكار المفكرين وآراء المصلحين إلى هذه الشريعة يلتمسون أن تكون نظام حياتهم ، وأساس مدنيتهم ، فلا بد لنا إذن من العمل ، ولا بد لنا من تلبية نداء الأمة ، وإعداد أنفسنا لهذه المهمة السامية .

أنا لا أزعم أن هذا العمل هين أو يسير ، بل أعتقد أننا سنحمل منه عبئاً ثقيلاً ، ونضطلع بمهمة شاقة ، ولكننى مع ذلك أعتقد أن تضافر القوى ، وتعاون الجهود ، والإخلاص لله ، وابتغاء وجهه الكريم ، كل ذلك كفيل بتسهيل الصعاب . لذلك كله أيدت اللجنة هذه المقترحات ، وأشارت بإنشاء مكتب علمى للجماعة تمهيداً للأخذ فى تنفيذها ، ورفعت رأيها فى ذلك إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر رئيس الجماعة ، وإنى ألمس من فضيلته عناية واهتماماً بهذه المقترحات ، وأعتقد أنها أصابت هدفه الأسمى فى الإصلاح الدينى والاجتماعى الذى يبتغيه جاهداً للأمة الإسلامية الكريمة ، وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه خير الدين والوطن .

وهنا انتهى حديث فضيلة المفتى الأكبر ، واستأذنته فى نشره فأذن ، ثم انصرفت شاكراً .

م . . .

الهجرة وشخصية الرسول

للأستاذ محمود شلتوت



كان للوحي قبل الهجرة اتجاه ، وكان له بعد الهجرة اتجاه آخر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يساير الوحي في هذين الاتجاهين ، ويحتفظ بما يؤدي إلى الغاية منهما .

كان الوحي يدور أولاً حول تحديد الدعوة ، وبيان الغرض منها ، ولفت الأنظار إلى أدلتها ، وذكر ما ينفع فيها من قصص الأولين وعبر الماضين ، وتسلية الرسول وغرس عوامل القوة الروحية في نفسه ، وتعويده عدم الاكتراث بما يجابه به من الإيذاء والتكذيب والاضطهاد . وقد اتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الناحية في تفكيره وأعماله وأقواله وسائر تصرفاته ، يبلغ الدعوة ، ويعالج الصبر على الإيذاء في سبيلها ، ويحاول جمع القلوب حولها ، ويرسم للناس دائرتها ، ويركز أصولها في النفوس ، ويعمل على إيجاد بيئة إسلامية صالحة لما يرد عليها فيما بعد من مبادئ التشريع .

فلما تمت الهجرة دخلت الدعوة في عهد جديد تكونت به للمسلمين وحدة اقتضت معاملات ونظماً اجتماعية تمتاز بها عن سائر الجماعات .

ومنذ ذلك الحين اتجه الوحي إلى جهة أخرى تسير مع مقتضيات الحالة الجديدة وتلبي مطالب هذه الأمة الناشئة ، واتجه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الاتجاه نفسه فأضيف بذلك إلى وظيفته في التبليغ وظائف أخرى ، فكان أماماً للمسلمين يسوسهم ويرعى دولتهم وينظم شئونهم ؛ وكان مفتياً يجيبهم عما يسألون ، ويعلمهم ما يجهلون ؛ وكان قاضياً يفصل في خصوماتهم ، ويقضي بينهم ، معتمداً على ما يظهر به الحق من البينات والأدلة .

وقد صدرت عنه صلى الله عليه وسلم في جو هذه الحياة الجديدة أقوال وأفعال وتصرفات مختلفة عني بها المسلمون عناية فائقة هي مضرب الأمثال في عناية الأمم بتاريخ عظمائها وتتبع آثارهم ، دونوها وشرحوها وضبطوا ألفاظها وألفوا المعاجم في شرح غريبها ، واهتموا بتفهم أسرارها ، وتبين أغراضها حتى كان من آثار ذلك أن نشأت علوم خاصة تعرف « بعلوم السنة » من رواية ودراية وتجريح وتعديل وناسخ ومنسوخ وغير ذلك .

* * *

يهم الناظر في التشريع الإسلامي أن يعرف : هل كان النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يروى عنه من هذه الأقوال وتلك الأفعال والتصرفات مُصدراً عن الوحي ، ناطقاً بلسانه ، أو كان له إلى جانب الوحي فيها تفكير ونظر واجتهاد ؟ ذلك ما نريد معالجته في هذا البحث .

يرى بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله فقط . تنحصر مهمته في تبليغ الوحي وما يتصل به من بيان على الوجه الذي عينه الله بقوله « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه »

ويرون أن صفة الرسالة فيه غلبت على صفة البشرية ، وأنه عليه الصلاة والسلام تمحض في استعداده لحمل الرسالة وتبليغ الأمانة ، معتمدين في ذلك على ما فهموا من قوله تعالى : (إن هو إلا وحي يوحى) بعد قوله : (وما ينطق عن الهوى) .

رأوا هذا ورتبوا عليه أن كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم شريعة من الله رب العالمين ، لها صفة الدوام والبقاء إلى يوم الدين ، والناس مخاطبون بها في كل زمان ومكان ، لا يجوز لهم أن يحيدوا عنها قيد شعرة ، ومن حاد عنها أو سوغ لنفسه أن يتصرف فيها ، فذلك خارج على شريعة الله ، مخالف عن أمر الله ، غير جدير بأن يكون من المؤمنين .

يقولون ذلك ويتشددون فيه ، ولا يفرقون بين أقواله وأفعاله وأحكامه وأقضيته وسائر تصرفاته في العبادات والمدنيات والجنائيات والطب والسياسة والحروب والعادات والزي واللباس وآداب الطعام والشراب والجلوس والسير في الطريق وما يكون

من الأحوال الشخصية والمسائل الجنسية وغير ذلك، فكل هذا وحي من الله ، بعضه ظاهر وبعضه باطن ، وكله شرع محكم ، ودين متبع لا يجوز الخروج عليه ، ولا التصرف فيه .

وقد نجد قوماً منهم يستثنون من ذلك بعض الأشياء التي لا تتصل بالنواحي التشريعية كرأيه صلى الله عليه وسلم في تأبير النخل ، أو في اختيار مكان ينزلون فيه للحرب أو نحو ذلك ، ولكنهم حين يتحدثون عن هذا الاستثناء يحتاطون في الأمر تمام الاحتياط ، فيضيقون دائرته ولا يتوسعون فيه .

***

لقد جاءت الشريعة الإسلامية « بالاجتهاد » ، وأمر الله عباده أولى الأبصار بأن يعتبروا ، وينظروا ، ويتدبروا كتابه الكريم ، وقد كان الاجتهاد سنة الأنبياء والمرسلين من قبل ، والقرآن يحدثنا بذلك عنهم كما في شأن يحيى إذ آتاه الله الحكم صبياً ، وكما في قصة داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم . وقد ذكر الله جملة من أنبيائه ورسله ، وأثبت لهم جميعاً هذا المعنى بقوله : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » ؛ ثم قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في الآيات نفسها : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

فالنبي إذن مأمور بالسير على سنة الأنبياء والمرسلين من قبله ، مأمور بأن يقتدي بهديهم ، وهذا أمر تقضى به طبيعة الأشياء ، لأنه لا يعقل أن يرسل الله رسولاً في وقت نبغت فيه الإنسانية ، واشتد ساعد الفكر البشرى ، ثم يحرمه النظر والتفكير الذى أباحه لإخوانه الأنبياء في طفولة الدهر وشباب الزمان ، وأباحه أيضاً لتبعيه الذين يدعوهم إلى دينه ويأمرهم بالعمل بشريعته .

كيف يسوغ لأحد أن يقول بحرمان النبي صلى الله عليه وسلم من الاجتهاد ، وهو مرتبة علمية من أسمى مراتب الفطنة البشرية والبصيرة الإنسانية ؟ أيمنحها الله لذوى العقول وأرباب البصائر ، ثم يحرمها على الإنسان الكامل ؟

كأني بهؤلاء يرون رسالة الرسول أمراً يتعارض مع بشريته . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رسالته وقبل رسالته بشراً اكتملت فيه جميع معاني البشرية الفاضلة . ولم يشأ الله أن يرسله حتى بلغ أربعين عاماً لتنضج بشريته وتكمل رجولته ، فلا تطغى عليها الرسالة ولا تسلبها خصائصها . وقد عنى القرآن الكريم بأن يؤكد هذا المعنى في كثير من آياته : « سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً » . « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ » . ومن زعم أن رسالة النبي قد غلبت على بشريته وقضت على لوازمها السامية فقد تلاقى في رأيه من قريب أو من بعيد بالذين يقولون « أبعث الله بشراً رسولاً » .

***

إن النبي صلى الله عليه وسلم بشر وفى أسمى مراتب البشرية ، وقد اكتسب بذلك شخصية الفقيه المجتهد كما منح شخصية الرسول المبلغ عن الله . وهو (أول الفقهاء) كما أنه (خاتم الأنبياء) . فلننظر إذن فيما ورد عنه صلى الله عليه وسلم على هذا الأساس الذى يجمع بين الرسول والفقيه

اقتضت حكمة الله أن يسوس عباده ، ويحقق مصالحهم بنوعين من التشريع : نوع يتولاه بنفسه وينص فيه على ما يريد ويرسل به الوحي إلى نبيه . ونوع آخر (يسكت عنه) فلا ينص عليه غير نسيان ولا إهمال ، ولكنه (رحمة بعباده) يكله إلى أصحاب الرأى والنظر لاختلاف المصلحة فيه باختلاف الظروف والأحوال . وقد قام (محمد النبي) بحق رسالته فبلغ النوع الأول كما أمر بتبليغه ، وقام (محمد الفقيه الأول) بحق بشريته : رسم طريقة الاجتهاد ، وعنى بالتطبيق العملي عليها ، وبأن يعبدها لمن يجيء بعده من الخلفاء والقضاة والأئمة : اجتهد وقاس وحكم ، وأفتى بالحاجة وتقدير المصلحة ، وساس الأمة بما أراده الله كما هو الشأن في المجتهدين والحكام

١ — اجتهد في الحروب وفى الأمور الدنيوية

٢ — واجتهد في الأحكام الشرعية ، فأفتى المرأة التي سألته عن حجها لأبيها بقوله : « أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته أما كان يقبل منك » ؟ وأفتى السائل عن قبلة الصائم بقوله : « أرأيت لو تمضمضت بماء ثم مججته أكان يضرك » ؟ وأفتى السائل عمن لامس امرأته أيكتب له أجر وهو يقضى شهوته ؟ فقال له : « أرأيت لو وضعها في حرام أيكون عليه وزر ؟ »

٣ — ونزل على اجتهاد غيره فاستثنى « الأذخر » في تحريم شجر مكة حين استثناه العباس . ودعا للمقصرين كما دعا للمحلقين ، وأذن في غسل القدور التي طبخت فيها لحوم الحمر الأهلية بعد أن أمر بكسرها ، ونزل المنزل الذى أشار عليه أصحابه بأن ينزل فيه

٤ — وكان يجتهد ثم ينزل الوحى بخلاف اجتهاده ، وقد يسكت عنه فلا يعرض له بتصويب ولا تخطئة : عاتبه الله على الإذن للمنافقين ، وعلى أخذ الفداء من أسرى بدر ، وعلى إعراضه عن الأعمى ، فكان ذلك إيذاناً من الله بتخطئته فى اجتهاده ، ورجع هو عن اجتهاد باجتهاد بمجرد النظر والتجربة فقال : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة[1] فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر ذلك أولادهم شيئاً » .

وقال : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى»

٥ — وكان يحكم فى الحوادث الجزئيـة التى ترفع إليه ، ويعتمد فى حكمه على البينات وحجج الخصوم ويقول : « لعل أحدكم ألحن بحجته فإنما أنا بشر »

٦ — وكان يكل الجهاد إلى أمرائه وقضاته دون أن يقيدهم بالرجوع إليه

٧ — وكان يسارع أحياناً إلى الجواب عما يسأل عنه من غير أن يتربص لوحى ، وأحياناً ينتظر أمر الله ويقول لم ينزل علىّ فيه شئ كما فى حادثة المرأة التى جادلته فى زوجها ، وكما فى حادثة الرجل الذى قذف زوجته ، فقد نزل القرآن بتشريع كفارة الظهار وشهادات اللعان

ولعل الأمر فيما ينزل فيه الوحى وفيما لا ينزل ، وفيما يجتهد فيه الرسول وفيما لا يجتهد راجع إلى الفصل بين الشئون التى تتعلق بأساس الدعوة ، أو بالجانب الخلقى ، أو بالعبادة ، وبين ما تختلف فيه المصلحة باختلاف الظروف والأزمنة والأشخاص ، وقد حدد الفقهاء المجتهدون بذلك مواضع الاجتهاد ومواضع النص

* * *

نستطيع بعد هذا أن نستخلص للنبى صلى الله عليه وسلم شخصيات متعددة : شخصية الرسول ، وشخصية الإمام العام ، وشخصية المفتى ، وشخصية القاضى

فهو بشخصية الرسول مبلغ عن الله لا يخرج فيما أوحى إليه عن حدود ما أمر به أو نهى عنه ، والمسلمون مكلفون به كما تلقوه عنه فى عمومه أو خصوصه ، وفى دوامه أو توقيته ؛ وهذا يغلب فيما هو من العقائد وأصول الأخلاق والعبادات ، ولا يعد النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فقيهاً ، وإنما هو أعلى شأناً وأجل مكانة من الفقيه

وهو بشخصية الإمام الأعظم رئيس المسلمين ، وزعيم قوميتهم يعمل على تركيز أمته ، وطبعها بطابع تتميز به عن سائر الأمم ، ويلحق بذلك كل ما ورد عنه مما يتعلق باللباس والأزياء والتشبه بقوم ومخالفة اليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، وما إلى ذلك مما لا يمس ناحية العقيدة ، ولا يعقل فيه معنى التعبد ؛ وإنما هو فى الشئون الاجتماعية البحتة التى تعرفها الأمم فى كل العصور والأجيال ، وينزع إليها الزعماء والقادة فى القديم والحديث ، والأمر فيهـا راجع إلى ما تراه الأمم ، وتقدر فيه قوميتها ومصلحتها وسيادتها

وهو بشخصية المفتى إما مجيب بلسان الوحى فليس له اجتهاد فى ذلك إلا فى تطبيق النص على جزئيات الحوادث ، وإما فقيه يجتهد ويقدر ويلاحظ أحوال السائلين فيجيبهم بما يراه كما يفعل سائر المجتهدين وبالطرق التى يألفها الناس فى استنباط المجهولات ، وقد علم له من هذا النوع كثير

وهو بشخصية القاضى حكم بين المتخاصمين يسمع دعاواهم ، ويتعرف الحق بما يسمع من شهادة الشهود وما يرى من وجوه التثبت ، ويقدر ظروف القضية وأحوال المتقاضين كما يفعل سائر القضاة ، وأحكامه فى هذه الدائرة لا عموم لها فى الأشخاص ولا فى الأحوال كما يقول علماء الأصول ، فليس لها صفة التشريع العام

* * *

هذه شخصيات أربع صارت إليه صلى الله عليه وسلم أثراً من آثار تلك الهجرة الميمونة . وإننا لنلمح هذه الشخصيات فى جميع ما أثر عنه ودوّن فى الكتب ، ومنه ما تظهر الشخصية التى صدر عنها دون أن يخالف فيه أحد ، ومنه ما تخفى شخصيته خفاء تتفاوت الأنظار فيه ، وتختلف الآراء فى تقديره

ولو أننا تتبعنا المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعطيناه نظرة فاحصة يتميز بها ما كان صادراً عن كل شخصية من هذه الشخصيات ولم نخلط بعضها ببعض ، ورتبنا على كل منها آثاره ، وأعطيناه حقه ، لسهل على المسلمين أن يتفاهموا فيما شجر بينهم من خلاف ، ولتصافح المتخالفون ، ولما رمى أحد سواه بالكفر أو الزندقة ، ولعلم الجميع ما هو شرع دائم عام لا سبيل إلى مخالفته أو الخروج عنه ، وما هو تشريع خاص ، أو مؤقت

(١) الغيلة هى أن ترضع المرأة ولدها وهى حامل

لهم أن يتصرفوا فيه بما تقضي به المصلحة ، وبما توحي فيه الظروف والأحوال

لو فعلنا ذلك لما أبقينا على أسباب هذا الخلاف والتناكر بين أفراد الأمة وطوائفها ، ولرجعنا إلى كلمة سواء في العبادات والمعاملات والآداب والنظم الاجتماعية وسائر شئون الحياة، ولانتفع الناس بشرع الله ودينه . ولكنا كما يريدنا الله (خير أمة أخرجت للناس) . وفقنا الله جميعاً إلى الرشاد وبصرنا بالحق والصواب

محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة
وعضو هيئة كبار العلماء

ساعة في ظلال الجنة

للأستاذ عبد الله عفيفي بك



الطريق من جدة إلى مكة غاص مزدحم ، يتدفق بالركب العظيم والركب أروع ركب وأحفله ، وأشده إثارة للقلب والعاطفة والخاطر والخيال . فيه الركبان من كل لون ، وفيه المشاة من كل قبيل . وفيه العابدون السائحون الذين صدروا عن أهلهم وأوطانهم منذ بضع سنين مشاة يستبقون إلى الله في بيته الكريم . وفي هؤلاء من ساروا يحملون أثقالهم وأحمالهم والشيوخ المستضعفين الذين لا يطيقون المشي من الرجال والنساء ، وفيهم الوالدات يحملن أطفالهن وراء ظهورهن ويرفعن فوق رءوسهن أزواد الركب الكبير . وقد انتشر هذا الخلق الحاشد على الوادي الممدود بين الجبال المتناوحة في قوة وعزيمة وفي صمت وجلال . بينما الشمس تؤذن بالثواء ، والليل من ورائها ينشر رواقه على الصحراء الإلهية الآخذة بمجامع القلوب

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » هذا هو النشيد السماوي الذي كان ينبعث من أعماق القلوب فتخشع له السموات والأرض والجبال ، وتتحطم في جنباته كل نفس عاتية وكل قلب حديد

وسارت السيارة بي وبرفاقي متئدة متمهلة في جلال هذا الحشد العالي الذي تغيب في جلجلته ضجة الجيش القاهر ، وتخفت لعظمته قعقعة السلاح العتيد

جاوزنا الركب العظيم وأنا في غاشية وجدانية ملكت عليّ الطريق . أبعد ساعة أو بعض ساعة أكون في البيت الحرام ، وحول الكعبة التي تشخص إليها وجوه المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وأقف بين مقام ابرهيم وحجر اسماعيل ؟

وأخيراً انتهى الوادي ، وانفرجت الجبال ، وتراءت لنا عن بعد أنوار مكة

الله أكبر ! لبيك اللهم لبيك ! سبحانك يا من سبحت له السموات والأرض ومن فيهن ! تعاليت يا رب الأرباب ! أهذه النسمات كان يشمها رسول الله . وهذه الأرض كانت تطؤها قدماه !

وسارت السيارة في أحياء مكة حتى انتهت إلى ما بين عتيقين في أقصى الطريق فوقفت ، وقال السائق هذا هو البيت الحرام !

نزلت وأنا ثابت ، لا أستطيع الحركة ، وأبصرت فإذا الكعبة تلوح عن بعد ، والمؤمنون يطوفون من حولها ، فأحسست بأن هذا المشهد من مشاهد السماء . . . !

دخلت البيت وكأنني روح من الأرواح تجرد عن هذه الدنيا وألقى وراء ظهره أحمالها وآمالها وآلامها وصار لا يشعر إلا أنه في ظلال الجنة

أنا الآن ذاهل اللب ، مخطوف القلب ، منهمل العينين ، أهتف بالتلبية ، وأنشج بالبكاء

وعلى الكعبة جلال من جلال الله ، وجمال من جمال الفردوس ، وروح من أرواح العرش ، لا يراه الراؤون إلا خفوا هياماً به ، وحنيناً إليه . وأقسم لقد طفت بالكعبة طواف القدوم وقبلت الحجر الأسود ، ووردت ماء زمزم ، وشربت منها عَلَلاً بعد نَهل ، وأنا لا أدرى إلا أننى فى جلوة سماوية ، أو حلم بديع .

خرجت وقد تعلق قلبي بالكعبة ، فلا أطيق الصبر عنها ، وعدت إليها فى السحر ، وسمعت أذان الفجر ، وأقيمت الصلاة . فوقف الناس صفوفاً حول الكعبة ، واستمعوا القرآن الكريم من إمام عذب الصوت ، جميل الترتيل ؛ وما أسماه موقفاً ، وما أطيبها متعة ، وما أخلدها لحظات !

وابتسم النهار ونحن جلوس بجانب المقام ، وللكعبة بهاء أكثر إشراقاً من بهاء النهار .

هي قوة روحية من قوى الله ، تلك التي يفيضها رب البيت على الوافدين إلى البيت .

آمنت بأن هذا البناء المشرف العظيم هو الذى بث روح الإيمان ونور اليقين فى نفوس المؤمنين ، حتى شقوا الطريق بهذا الدين إلى أرجاء العالمين .

وتمثلت في هذا الموقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى طريق هجرته إلى المدينة ، وقد وقف على ظهر ناقته واستشرف لعله يرى معالم مكة ، ثم ناجاها بقوله الكريم : « إنى لأعلم أنك أحب البلاد إلىّ ، وأنك أحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن المشركين أخرجونى منك ما خرجت » .

هكذا أقمت فى مكة وفى منى وعرفات والمشعر الحرام ثمانية أيام ، وعدت إلى الكعبة وأنا أشم منها روح الجنة ، وأرى فيها بهاء السماء .

اللهم أعدنى إلى مكة ، فإنى أجد الشوق شديداً ، وما زال العهد غير بعيد

عبد الله عفيفي

رسول الله في عرفات

للدكتور عبد الوهاب عزام



أما اليومُ فتاسعُ ذي الحجة ، وأما السنةُ فالعاشرة من الهجرة ، والحجيج يسيرون من منى إلى عرفات ، فما بال الناس لا يسيرون على السَّنَن المألوف ، ولا يفعلون ما كانوا يفعلون ؟ ما بالهم لا تفرّقهم العصبيات ، يتحازون إلى الرايات ؟ ما بال القبائل لا تلبّي لآلهتها ولا تهيب بأصنامها ؟ عجباً ، لا تذكر الآلهة حتى اللات والعزّى ومناة ، ولا تسمى الأوثان حتى وَدّ وهُبَل ؟

كلا ، كلا ، قد تتابع القوم في سمت وخشوع ، فأين الجلبة والضوضاء ، والتفاخر بالآباء ؟ وإن قريشاً تتجاوز المزدلفة مع الناس إلى عرفات ؛ فكيف سوت نفسها بالقبائل ، ورضيت أن تسير إلى هذه المنازل ؟ لست أرى ما غير قريشاً من غيرهم ، ولا الحُمس ممن عداهم ، وأين النَّسَأة من كنانة ؟ لا ترى لهم شارة ولا موكباً ولا تبصر منهم أحداً . ماذا دها العرب فغيّر سننهم ؟ بل من ذا الذى جاءهم فجمع شملهم ووحد كلمتهم وأخلص لله دعوتهم ؟ إن هذا لشئ عجاب . كنا قبل سنتين نسمع الضجيج والضوضاء ، والتصدية والمُكاء ، ونرى كل قبيلة تتحاز إلى علمها وتنادى ربها ، فمن مُشيد بالأوثان ، ومن مُناد : لبيك ربّ كنانة ، أو لبيك ربّ همدان ؟ فاستمع اليوم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك !

قد تغيرت الدعوة واختلف الشعار ، وتبدلت السيما والسيرة ، ما عهدنا هذا من قبل !

والشيطان ذليل حسير قد أوى إلى صخرة على جنب الطريق يرقب الوفود المتآخية بل الأخوّة المجتمعة ، يرمى الجموع بعينه خزيان ، ويعض بنانه حيران ، يقول : «ويلي من محمد ! لقد أخرب بيوتى من هذه الأوثان ، ومحا البغضاء والشنآن . لقد ذهب النزاع والخصام ، وأفلت من يدى الزمام . ويلي من محمد ! ألم يكن بالأمس يغشى هذه المجامع وحيداً ، ويرتد عنها مخذولاً ؟ ألم يكن يعرض نفسه على القبائل لتجيره ، فيلقى الغلظة والجفاء ، والهزء والسخرية ؟ ويلي من محمد ! لست آسى على الحجاز وحده ولا على جزيرة العرب فحسب ، إنى لأوجس خيفة أن يجاوز هذا التوحيد الجامع ، وهذه الأخوة الموحدة ، حدود الجزيرة ، فتدمر منازلي من معابد الوثنية ، وقصور الجبارين ، وتمتد إلى كل بقعة تزلزلها الفرقة ، ويسيطر عليها الظلم ، ويشيع فيها الفساد ، وتتغلغل فيها الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويرفع فيها لواء الباطل فوق كل لواء . ويلي ! لقد جاهدت محمداً في دارى ثلاثاً وعشرين سنة واستنصرت شياطين الإنس والجن ، وحشدت جنود الباطل ، وخيل إلىّ مراراً أنى أشرفت على الظفر في هذه الجموع التي تسير وراء محمد وتدعو بدعوة محمد ومن أنه يوم له ما بعده »

يسير رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف من الحجاج إلى عرفة وهذه قبة ضربت له في نمرة فينزل بها

زالت الشمس فأمر رسول الله بناقته القصواء فرُحِلت فركب حتى أتى بطن الوادى وادى عُرَنة فوقف واجتمع الناس وأصاخوا للخطبة التي لم يخطب الرسول مثلها في مثل هذا الجمع الحاشد ، والوصية العظمى التي يوصى بها الرسول أمته في حجة الوداع ، والبلاغ الأكبر يوم الحج الأكبر يؤذن الناس بكمال الدين وتمام النعمة ، وتمكن الإسلام[1] ووقف ربيعة بن أمية ابن خلف على مقربة من الرسول يبلغ الحجيج بصوته الجهير مقال رسول الله

ألهم الرسول أنه بلّغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، وأن الدين قد كمل ونعمة الله قد تمت ، فقال : « أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً . »

(١) في هذا اليوم نزلت الآية الكريمة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً »

وعلم رسول الله أن التوحيد الذى جاء به الإسلام كفيل بتوحيد الله على مر الدهور ، وأن الكتاب الذى بلّغه ضمين ألا تعبد الأوثان من بعد ، وأن العقول التى حرّرها تستنكف أن ترتكس فى أباطيل الجاهلية . فليس يخشى على أمته الشرك ولكن يخشى أن يستجيبوا للشيطان فيما عدا التوحيد فى أمور يحسبونها هينة وهى عظيمة الأثر فى نظام الجماعة وأخلاقها ، حرية أن توهى القوة ، وتفرّق الكلمة ، وتعطل العقيدة الصالحة . وذلكم كل كلمة تؤدى إلى فرقة ، وكل فعلة من الظلم والعدوان أو الرذيلة والمنكر . عرف هذا خاتم النبيين فقال : « إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » .

ثم وكد الرسول ما بلغه وعلمه ثلاثاً وعشرين سنة من حرمة الدماء والأموال والأعراض . وكّد ما أبطل به الحروب المتمادية ، والغزوات المستمرة ، والتارات المستعرة ، وما هدم به جاهلية العرب هدماً ، وردّها شرعاً من السلام والوئام ، وسلطان القانون العام ، فقال : « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا . . . وإن كل دم فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب ؛ فهو أول من أبدأ به من دماء الجاهلية .

ثم عمد الرسول الذى علم البر بالفقير وجعل له حقاً فى مال الغنى ، وعطف القلوب بعضها على بعض وأشعرها البر والمواساة ، وعمد إلى هذا الإثم الآثم ، والجرم المنكر ، الذى تتبرأ منه الأخلاق والمروءة، هذه الشرعة الدنيئة التى تحكم الغنى فى رقبة الفقير بدراهم معدودات ، وتتغلغل فى الأخلاق والأموال تغلغل السوس ، فأعاد ما وكده الكتاب والسنة من إبطال الربا ، وأعلن أنه سواء منه ما تقدم وما تأخر قد محقه الله ومحق آثاره فقال : « وإن كل ربا موضوع ، ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ؛ وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله »

ولم ينس النساء وقد أنقذهن من الوأد وأشركهن فى الإرث وجعل « لهن مثل الذى عليهن بالمعروف » وشرع لهن الشريعة الكافلة سعادتهن وسعادة الأمة . لم ينس النساء فى هذا الموقف العظيم الذى يوصى فيه بأصول شريعته قال :

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً ... واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ... فاعقلوا أيها الناس : « ليت النساء أخذن الحقوق وأدين الواجبات . ليت ثم ليت »

ثم وكد نبى التوحيد والأخوة ما بنى عليه شرعه من التراحم والتآخى والمساواة والمواساة ، وأن الناس سواسية كأسنان المشط سواء فيهم الأسود والأبيض ، كلهم لآدم وكلهم عباد الله وكلهم إخوة فى الله . قال الرسول الأكرم : « إعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى فإنى قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة نبيه ... أيها الناس : اسمعوا قولى فإنى قد بلغت ، واعقلوا تعلمُنّ أن كل مسلم أخو المسلم ، وأن المسلمين إخوة ؛ فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس ، فلا تظلموا أنفسكم . اللّهم هل بلغت ؟ »

قال الحاضرون : نعم . قال الرسول اللّهم اشهد .

ذلكم ما أوصى به الرسول يوم الحج الأكبر فى حجة وداعه ، وتلكم حقوق الإنسان دوّت بها أرجاء العالم قبل ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ... تلكم وصايا الرسول لأمته تدوى بها الأجيال ، وتسمعها الآذان ، فأين منها الأعمال « إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين »

عبد الوهاب عزام

شروط الاجتهاد في الفقه الإسلامي

للأستاذ محمد محمد المدني



كان الفقهاء الأولون من المسلمين مُثُلاً عليا في النشاط العلمي، والتفكير العقلي، والجرأة على الدراسة والشجاعة في مواجهة الحقائق. درسوا كتاب الله وسنة رسوله، وفهموا مقاصد الشريعة، وأدركوا أسرارها، وعرفوا أحوال عصرهم، وعادات قومهم، واجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد، ولم يقصروا في ناحية من نواحي النظر، حتى ملئوا طباق الأرض علماً، ووسعوا دائرة الفقه، وجعلوا من مباحثه صوراً تمثل حياة الناس في عصورهم تمام التمثيل، ونشروا علمه الخفاق على دور الحكم والولاية والقضاء، ومراكز الإدارة والسياسة ودوائر الأموال والأعمال!

ثم دار الزمان دورته، وجاءت من بعد ذلك عهود ركدت فيها ريح الفقه، وغلّقت أبواب الاجتهاد، وأصبح الفقهاء رواة لمن كانوا قبلهم يرددون أقوالهم، ويشرحون عباراتهم، ويدرسون ألفاظهم، ويتعصبون لمذاهبهم، وابتعدوا بالفقه عن الحياة الواقعية، واحتفظوا منه بصور أثرية تتحدث عن عصور منقرضة وتصف أحوالاً مندثرة؛ وكان من آثار ذلك نفور أهل الحكم والسلطان منه لشعورهم بأنه على صورته التي صار إليها لا يلبي حاجات الأمم، ولا يصلح عيوبها، ولا يحل مشاكلها. وكان من آثار ذلك أيضاً أن انقطعت الصلة بين أهله وبين المجتمع، إذ أصبحوا غرباء عنه، يعيشون في واد غير واديه، ويدرسون أحوالاً غير أحواله. ثم كان من آثار ذلك أن دخلت التشريعات الأجنبية على بلاد المسلمين؛ فأصبحت دستور الحكم، وأساس الإدارة، وقانون القضاء، وعماد النظام في كل ناحية من نواحي الأعمال!

هكذا كان الفقه وهكذا صار!

* * *

كثيراً ما أسائل نفسي: هل كان الفقهاء الأولون طرازاً غير طراز سائر الناس؟ هل منحهم الله ما لم يمنحه أحداً من بعدهم، فآتاهم من العقل ما لم يؤت العقلاء، ورزقهم من صحة الفهم وقوة الإدراك ما لا ينبغي لأحد بعدهم من ذوي الفهم والإدراك؟ هل فتحت كنوز العلم والمعرفة والنظر عنصراً من الزمان ثم غلقت أبوابها وأُحكِم رتاجها فلن تفتح بعد ذلك لأحد من العالمين؟

إني أحب هؤلاء الفقهاء وأجلهم ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن أجيب عن هذه الأسئلة «بنعم» لأن فضل الله أوسع من أن يقصر على زمان دون زمان، أو يختص بقوم دون آخرين

لا أستطيع أن أجيب «بنعم» لأن كتاب الله خالد، والخطاب به عام لجميع الناس سواء منهم المتقدمون والمتأخرون: كلهم مطالبون بأن يتدبروه ويعقلوا هدايته، ويدركوا أسراره، ويَلْقَنوا[1] منه حجة الله على عباده، وينتفعوا به في دينهم ودنياهم. ولو جاز أن تقف العقول البشرية عن متابعة هداية الله، وعن تدبر كلمات الله، لما قامت حجة الله على المتأخرين من الناس كما قامت على المتقدمين منهم، ولما كانت هنالك فائدة عملية في أن يضمن الله الحفظ والخلود لكتابه الكريم!

إذن فما بالنا قد حرمنا أنفسنا هذا المتاع العقلي، وهذه اللذة الفكرية فلم ننظر كما نظروا، ولم نجتهد كما اجتهدوا؟ بل لماذا رضينا أن نكون صدى لهم في كل شيء حتى لنستشيرهم ولا نستشير عقولنا في أحوال شهدناها وغابوا عنها، ورأيناها رأي العين وتوهموها؟!

«شروط الاجتهاد» هي التي قضت علينا بذلك! نعم شروط الاجتهاد التي تصورها أهل العلم من المتأخرين شيئاً هائلاً رهيباً، وأسرفوا في تقييد أنفسهم وتقييد الناس بها، وأقاموا منها حجاباً بين العقول وما أوسع الله لها من مدى في التأمل والتفكير!

(١) لقن فلان الكلام من فلان: أخذه عنه مشافهة وفهمه

أبى المتأخرون إلا أن يجعلوا للاجتهاد شروطاً ، ثم زعموا للناس أن هذه الشروط صعبة لا يستطيعها أحد ، كثيرة متشعبة لا تكاد تجتمع لأحد ، فأغلقوا باب الاجتهاد ، وأوجبوا على الناس أن يقلدوا ، ثم لم يكتفوا بذلك حتى أوجبوا عليهم تقليد فقهاء معينين ، يتعصبون لهم ، ويزعمون أنهم أولى بالاتباع من غيرهم ، ولكن أقوالهم اضطربت فى ذلك اضطراباً يثير الظنون ، ويغرى بالتهم : فقالت طائفة منهم : لا يجوز لأحد أن يختار بعد أبى حنيفة وأبى يوسف وزفر . وقالت طائفة أخرى : لا اختيار بعد الأوزاعى وسفيان . وقال قوم : ليس لأحد أن يختار بعد الشافعى . وقال آخرون : ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة . ولما اشتهرت المذاهب الأربعة المعروفة وكان لها أتباع ومتعصبون يخشى بعضهم كيد بعض ، اصطلحوا فيما بينهم على أنه لا يجوز تقليد أحد سوى هؤلاء الأئمة ، فجعلوا لحكمهم أثراً رجعياً ينسحب على جميع الفقهاء الذين اجتهدوا ، فلم يعد لأحد أن يأخذ بقول الليث أو سفيان أو غيرهما من أصحاب المذاهب التى لم ترزق من الجد وحسن الطالع ما رزقته هذه المذاهب المعروفة ، فانقرضت ولم يبق لها أنصار يدافعون عنها ، ويدعون إليها

فعلوا ذلك كله ، وألقوه فى روع العامة كأنه عقيدة من العقائد ، وشغبوا به على أصحاب العقول الراجحة ، والأفكار الحرة ، وأعلنوا عليهم حرباً طاحنة ، جيوشها العامة والدهماء ، وأسلحتها التكفير والرمى بالزندقة والخروج على إجماع الأمة ، والطعن فى الأئمة الذين ارتضاهم المسلمون ... الخ ، ثم عكفوا على كتب بخصوصها لا يعرفون غيرها ، ولا يعتمدون على سواها ، ولا يتلقون شريعة الله إلا منها ، ذلك بأنها ألفت على هذه الشريطة فى عصور التأخر الفقهى ، وزعموا أن الدنيا خلت ممن يستطيع أن يخرج على هذه الكتب ، أو يتكلم فى العلم دون أن يعتمد عليها ، بل حرموا على الناس أن ينظروا فى كتاب الله أو سنة رسوله نظر العلماء المستنبطين ، وأوجبوا على العالم ألا يقضى ولا يفتى بشئ منهما حتى يعرضه على ما تنقله هذه الكتب من أقوال مذاهبهم ، فإن وافقها جاز الحكم به ، وإلا وجب رده وعدم قبوله !

تلك آثار بعيدة المدى ، لا يزال الفقه الإسلامى يعانيها ويحمل إصرها وأغلالها ، ويتعثر فى أشواكها وعقابها ، وهو الفقه الذى ورثناه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه من بعده ، وعن الأئمة المهتدين ، قوياً لا يعرف الضعف ، ناشطاً لا يعرف الجمود ، واسعاً لا يضيق صدراً بالنوازل والأحداث !

شروط ؟ ومتى كان للاجتهاد شروط ؟ هل ذكرت فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ؟ هل كان الصحابة الذين اجتهدوا واختلفوا وتعددت آراؤهم يعرفونها ؟ وهل روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان ينهاهم عن الاجتهاد أو يشترط له شروطاً خاصة ؟

لقد كان الصحابة رضى الله عنهم مع تفاوتهم علماً وفهماً وإدراكاً لأسرار التشريع يجتهدون ويختلفون فيما بينهم ؛ وربما انفرد الواحد منهم بالرأى لا يراه غيره ، ولقد وجد من بعدهم عشرات بل مئات من المجتهدين ، وكانت لهم حرية فكرية واسعة المدى ، فأين فى هذا كله خبر تلك الشروط وأين حسها ؟ وهل زعم أحد أنهم أعدوا أنفسهم أولاً لنيل شروط معينة ، وأشهدوا الناس على أنهم حصلوها ثم أخذوا بعد ذلك ينظرون ؟ كلا فليس الاجتهاد منصباً تمنحه الأمة وتمنعه ، إنما هو مرتبة علمية يشعر بها العالم من نفسه ، وليس كل أحد يدعى ذلك . ولم نسمع أن أحداً من أهل العلم قد التمسه أو أقدم عليه دون أن تكون له أداته الطبيعية ؛ وليس الناس ملزمين برأى من الآراء كأنه فريضة محكمة ، وإنما هو العلم أساسه الحجة والبرهان . ولو اتفق الناس على أن رجلاً منهم صار من أهل الاجتهاد لما أعفاه ذلك من تمحيص العقول لآرائه ، والتثبت من حجته . ولو أنكر الناس على رجل منهم هذه المنزلة لما أعفاهم ذلك من الخضوع لرأيه حين تكون الحجة إلى جانبه

فليس الأمر إذن أمر شروط تشترط ، وإنما هو العلم يجب أن تسمع كلمته من أى فم كان ، وأن تفهم وتقبل إذا كانت حقاً ، وأن ترفض وترد إذا كانت باطلاً ، والحق أحق أن يتبع !

***

ولكن ، لندع هذا كله جانباً ، ولننظر فى نفس هذه الشروط كما يصورها الذين خوفوا الناس بها ، وحجروا على العقول من أجلها !

تصفح ما شئت من كتب الأصول التى وضعها المتأخرون ، واقرأ ما شئت من هذه الشروط ، تجده يبدو لك أول الأمر عسيراً لا يستطاع تحقيقه ؛ فإذا راجعت فيه الشروح والحواشى والتقريرات ، وجدت الأمر على خلاف ما بدا لك ، ووجدته شرطاً هيناً سهل الحصول

قالوا : أول شروط الاجتهاد أن يكون المرء عالماً بكتاب الله وسنة رسوله ؛ ثم جعلوا يضخمون هذا الشرط ، فحكوا لنا خلاف العلماء فيما يجب علمه من السنة ؛ فقالوا : ألفان ؛ وقالوا : عشرة آلاف ؛ حتى زعم بعضهم أنه سأل أحمد بن حنبل : كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي ؟ يكفيه مائة ألف ؟ قال : لا ؛ قال : ثلثمائة ألف ؟ قال : لا ؛ قال : أربعمائة ألف ؟ قال : لا ؛ قال : أيكفيه خمسمائة ألف ؟ قال : أرجو !

لا تخف — أيها القارئ — ولا تستصعب الأمر ، فإن شارح التحرير يقول : « إن ذلك محمول على الاحتياط والتغليظ في الفتيا[1] » ؛ وإن الغزالي يقول : « لا يشترط معرفة جميع ما في الكتاب ، بل ما تتعلق به الأحكام ... ولا يشترط حفظها عن ظهر قلبه ، بل أن يكون عالماً بمواضعها بحيث يطلب منها الآية المحتاج إليها في وقت الحاجة ، ولا يلزم حفظ السنة عن ظهر قلبه ، بل أن يكون عنده أصل مصحح لجميع الأحاديث المتعلقة بالأحكام . ويكفيه أن يعرف مواقع كل باب فيراجعه وقت الحاجة[2] » .

فانظر كيف بدأ هذا الشرط عسيراً هائلاً ، ثم عاد خفيفاً هيناً !

وقالوا : لا بد أن يكون قادراً على التمييز بين الصحاح والحسان والضعاف من الأحاديث ، بحيث يعرف حال رجال الأسناد معرفة يتمكن بها من الحكم على الحديث بأحد هذه الأوصاف ؛ والشوكاني يعلق على هذا الشرط فيقول : « وليس من شرط ذلك أن يكون حافظاً لحال الرجال عن ظهر قلب ، بل المعتبر أن يتمكن بالبحث في كتب الجرح والتعديل من معرفة حال الرجال[3] » ؛ وكذلك يقول صاحب مسلم الثبوت : « مع العلم بحال الرواة ، ولو بالنقل عن أئمة الشأن[4] » .

وقالوا : لا بد أن يكون عالماً بمسائل الإجماع ، وبالناسخ والمنسوخ . ويقيد الشوكاني هذا الشرط بقوله : « إن كان ممن يقول بحجية الإجماع ويرى أنه دليل شرعي »[5]

ويقول الغزالي « وليس معنى ذلك أنه يلزمه أن يحفظ جميع مواقع الإجماع والخلاف بل في كل مسألة يفتي فيها فينبغي أن يعلم أن فتواه ليس مخالفاً للاجماع . إما بأن يعلم أنه موافق مذهباً من مذاهب العلماء أيهم كان ، أو يعلم أن هذه واقعة متولدة في العصر لم يكن لأهل الإجماع فيها خوض »[1]

أما الناسخ والمنسوخ فهذه كتب التفسير والحديث تعد بالمئات وقد تكفلت ببيان مواضع النسخ بياناً شافياً . على أن جهابذة العلماء لا يرون القول بنسخ شيء من الكتاب الكريم

شرطوا بعد ذلك أن يكون المرء عالماً بلسان العرب وعلم أصول الفقه ، ثم قالوا إلى حد يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه وفحواه ولحنه ومفهومه الخ

والأمر في ذلك يسير وإن بدا متعسراً . فعندنا من العلماء من يعرف لسان العرب كما كان يعرفه العرب أنفسهم ، ومن فاق الأولين بصراً بعلم أصول الفقه وقدرة على التصرف فيه ، وبين أيدينا جميع مؤلفات العلماء في ذلك وفي قدرتنا أن نستخرج منها ما نريد ، وقد قربوها كما يقول الشوكاني أحسن تقريب !

هذه هي شروط الاجتهاد كما يراها المتأخرون ، وهي شروط في المجتهد المطلق الذي ينظر ويستدل ويستنبط في جميع أبواب الفقه ؛ فأما الذي ينظر في باب دون باب ، أو في مسألة دون مسألة ، فالأمر فيه أيسر ، وقد أجازوا له ذلك دون أن يشترطوا فيه إلا « أن يكون على بصيرة فيما يفتي »

فأي شيء في هذه الشروط يصعب تحقيقه ؟ وكيف يقال ذلك في عصر العلم والمراجع والمكتبات والفهارس والمذياع وجميات المراسلات والمؤتمرات العلمية والصحف والمجلات والدراسات المنظمة ، وهو لم يقل في عصور كانت العلوم فيها ناشئة ، وكان العلماء فيها يرحلون للحديث الواحد من بلاد إلى بلاد !

* * *

أما بعد فقد أتى على الناس حين من الدهر كان التدين فيه هو طابع الحياة ، وكانت مظاهر الورع والتقوى والصلاح تستطيع أن تغطي القصور والضعف وقلة الانتاج

أما اليوم فإننا في زمان هجمت علينا فيه الثقافات من كل جانب ، وأصبح الناس بحاجة إلى التوسع في العلوم ، وتلبية مطالب الحياة ؛ وأصبح النضج الفكري عنوان التقدم ووسيلة الاحترام

فإذا التمس العلماء أن يعيشوا في العصر الحديث بما كانوا يعيشون به في العصر القديم فقد التمسوا المحال

(القاهرة)

محمد محمد المدني
المدرس في كلية الشريعة

(١) شرح التحرير ج ٣ ص ٢٩٢
(٢) المستصفى للغزالي ج ٢ ص ٣٠١
(٣) إرشاد الفحول للشوكاني ص ٢٣٤
(٤) مسلم الثبوت « نسخة الشرح » ج ٢ ص ٣٦٣
(٥) إرشاد الفحول ص ٢٣٤

(١) المستصفى ج ٢ ص ٣٠١

حلم ليلة الهجرة

للأستاذ علي محمود طه



يا شرقُ ، مِلءُ خاطرِى سحرٌ ومِلءُ ناظرِى
أوَحْىُ ليلكَ القديمِ أم رُؤَى الزواهرِ ؟

يا شرقُ ، أىُّ ليـــلةٍ رائعةِ الدياجر
نجومها خلفَ الغمامِ أعينُ المقادر

ترنو على جوانبِ السماء للمهـاجر
تَمُدُّ من شعاعها مِثْلَ جَناح طائر

رُعْيا المحبِّ للحبيب حُفَّ بالمخـاطر
تقول ههنا السُّرَى ومن هنا نغادر

يا شرقُ ، أىُّ ليلةٍ بَعَثْتَها من غابر
حقيقة تلوح لى أم ذاك حُلمُ شاعرِ ؟

أرى على صحيفةِ الزمانِ حدًّا باتر
تكمنُ فى فِرِنْدِهِ جريمـــةٌ لغادر

ومن بريقهِ تُطلُّ ألفُ عينٍ فاجر
مُلَقًّى وراء صخرةٍ كانت ملاذَ عابر

أوَى إليها مُفْرَدًا غـير أخٍ مناصر
والبادياتُ حوله رَوْعٌ وهمسُ حائر

كأنمـا أنسامهنَّ تمتماتُ ساحر
هو انتقالةُ الحياة ، وثبـــةُ الأداهر

شدا الرعاةُ باسمه فى الأعصرِ الغوابر
وأودعوه فَرْحَـــةً جوانَحَ السرائر

وأبدعَتْهُ نَغَمًا صـــوادحُ المزاهر
زفُّوا به إلى الحياة أجمل البشائر

لحنٌ وفيه قسوةُ العواصفِ الثوائر
وفيـه ثورةٌ . على العقائد الدوائر

يقتحمُ الذُّرَى المنيعة اقتحامَ ساخر
يهزأُ بالجيوش فى ألوية القياصر .

يهدمُ كل فاسدٍ ، يهزمُ كل جائر
ومن عجيبِ أمره يبنى بناءَ قادر !

يا شرقُ ، سحرُكَ القديمُ مالِكٌ مشاعرى
هذى الطوالعُ الحسانُ فى الحُلَى النواضر

المطلقاتُ بالنشـــيد أرخمَ الحناجر
كأنهنَّ جَوْقَةُ الهواتفِ الطوائر

حيَّين مَوْلِدَ الربيع والسَّنَى المباكر
عرائسُ الخيالِ ، هُنَّ ، أو بناتُ خاطرى

ينثرن من أكفهنَّ أجمل الأزاهر
على طريقِ مُلْهَمٍ مُخَـــلَّدِ المآثر

يا شرقُ ، أىُّ روعةٍ جَلَوْتَها لناظرى
حقيقةٌ تلوحُ لى أم ذاك حُلْمُ شاعر ؟

علي محمود طه

عدو إبليس

للأستاذ توفيق الحكيم



« عزرائيل ينصرف عن دار النبي بعد وفاته فيرى إبليس مقبلا فرحاً مبتهجاً . . . »

إبليس — هل قبضت روحه ؟

عزرائيل — وما شأنك وهذا ، أخزاك الله ؟

إبليس — نعم ، نعم ، لقد مات . أليس هذا صوت ابنته فاطمة تبكي وتصيح : « أبتاه ، أبتاه . أجاب ربّاً دعاه ، يا أبتاه ! جنة الفردوس مأواه ! يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ! »

عزرائيل — وما يعنيك من هذا الأمر ؟

إبليس — أو ليس هذا أيضاً صوت عائشة في بكاء وشهيق : « وا حر قلباه ! وا مصيبتاه ! ألآن قد انقطع عنا خبر السماء ! »

عزرائيل — أغرب عن هذا المكان !

إبليس — ثم ها هو ذا صوت نسائه كلهن يبكين : « وا ثكلاه ! وا ثكلاه ! »

عزرائيل — أغرب عن هذا المكان !

إبليس — ما أجمل هذا النهار . . . إن نفسي لتكاد تنفجر شعراً وغناء . إصغ إلى هذه الأغنية :

ذهب عدوى إلى الفناء
اليوم عيدى فإلى الغناء

عزرائيل — صه ! قبّحك الله وقبّح صوتك !

إبليس — صوتي منذ اليوم يستطيع أن ينطلق حرا في أرجاء الأرض . صوتي منذ الآن يستطيع أن ينفذ إلى تلك القلوب التي كانت تميل عني لتتلقى أخبار السماء ؟ نعم الآن قد انقطع عن الأرض خبر السماء . لقد عاد إليّ ملك الأرض من جديد . . . وافرحتاه ! وافرحتاه !

عزرائيل — خسئت ! إن نور السماء قد نفذ إلى قلوب الناس فهيهات بعد اليوم أن يصغوا إلى صوتك !

إبليس — إنك لا تعرف الناس مثلما أعرفهم . إني أعرف كيف أمر بأناملي مراً رقيقاً على أوتار قلوبهم ، فيذهلون ، وأغني بصوتي هذا غناء شجياً فيطربون . . . إنك لا تعرف ما هي الأغاني التي أغنيها لهم . إني أغنيهم أغاني الأرض لا أغاني السماء ! إن السماء تنير قلوبهم حقيقة .. ولكن لأجل قريب . لا تنس أنهم خلقوا من طين الأرض . لا شيء يهز كيانهم غير أغاني الأرض !

عزرائيل — إنهم من الأرض ولكن أعينهم تتطلع إلى السماء

إبليس — نعم ، عند ما يشير لهم إليها النبي بأصبعه ، فإذا ولّى . . . عادت رؤوسهم تنخفض نحو الأرض . إنهم كالسنبلة التي لا يرفعها غير الأصبع ، فإذا تركت سقطت

عزرائيل (كالمخاطب لنفسه) — عجباً ! ولماذا إذن رضي الله أن يقبض نبيه ؟! إن لله حكمة ، أجل ، أجل . أنسيت أيها الخاسر أن النبي إنما يأتي للتبليغ ويمضي . إنه جاء بالدين . إنه يذهب ولكن الدين باق . الدين هو الأصبع الدائمة التي لا تنفك تقيم المعوج . لا تفرح إذن كثيراً بموت النبي . ما مات غير الجسد الزائل . أما المبادئ والتعاليم فهي قائمة في وجه ريحك العاتية دائماً . . . ما الرسول في الحقيقة غير الرسالة . . . والرسالة لا تموت

إبليس — نعم ، نعم .

عزرائيل — ما بالك وجمت ! إن على وجهك الآن لغبرة تزيده قبحاً على قبحه . . .

إبليس — الرسالة والدين والتعاليم . . . هذا صحيح . . . ولكن . . . تلك أشياء لم تخفني قط . . . فقد استطعت فيما مضى أن أنزع عنها بعض قوتها . . . إن المسيح قد بشّر بالمثل الأعلى وفتح قلوب الناس لنور السماء . وذهب وقد ترك في الأرض

قديسين وخلفاء ساروا على سنته فى نبذ متع الأرض والانقطاع مترهبين فى الصوامع والبيع والصحارى ورؤوس الجبال يتأملون وجه الله وحده ، ناسين أو متناسين هذه الأرض التى من عناصرها صنعت أجسامهم ... هنا تراءيت لهم ولمن تبعهم فى صور مختلفة تذكرهم بما نسوه وتناسوه ، وخاطبت أجسامهم بالمنطق الذى تفهمه ، وحدثت عناصر تركيبهم باللغة التى تعرفها ... فإذا أكثر الناس يصغون إلىّ فى أمور حياتهم ومعاشهم ولا يذكرون تلك التعاليم والمبادئ السماوية إلا يوم يجدون فى أوقاتهم فراغاً للتفكير فى السماء . إنى ذكى . إنى لم أرد قط فى حربى ضد المسيح أن اقتلع المسيحية من النفوس ، ولكنى أظهرت فى لباقة ما فيها من علو شاهق لا يستطيع المخلوقون من تراب وطين أن يبلغوه ما داموا آدميين ... فليصغوا إذن إلى أغانى الجسد وأناشيد التراب والطين ... وليطلب العلو من كان عنده فضل من فراغ ينفقه بعيداً عن الأرض والحياة ... وبهذا أصبحت المسيحية الحق اليوم ترفاً روحياً لا يقتنيه غير خاصة الخاصة ، أولئك الذين لم أستطع أن أخاطب فيهم منطق الأجساد والعناصر ...

عزرائيل — لقد أدرك الله غرضك الأثيم فأرسل محمداً بدين لا ينكر منطق الأجساد والعناصر ... دين لا يعرف الرهبنة ولا إنكار قوانين الأرض ... دين لا يكره أن يصغي أتباعه إلى أغانى السماء والأرض معاً ... وأن يفكروا فى الآخرة والدنيا معاً ... ما وسائل حربك إذن ضد محمد والإسلام ؟

إبليس — حقاً ... تلك هى المشكلة ! لهذا كان ذلك النبى ألدّ عدو لى !

عزرائيل — إنه خاتم الأنبياء لأنه ضيق عليك الخناق ، وسد كل ثغرة يمكن أن تنفذ منها سمومك ... فماذا أنت صانع ؟ ...

إبليس — دعنى أفكر ...

عزرائيل — فكر طول الأبد ... فلن تظفر ...

إبليس — بل لقد فكرت وظفرت ... الأمر بسيط : يجب علىّ أن أطمس خصائص هذا الدين ... إنى خبرت الناس لطول لصوقى بهم وعشرتى لهم ... إن الناس يميلون دائماً إلى التشبه والتشبيه ... هذه القرود الناطقة ... يصعب عليها التمييز والتفريق والنظر فى فلسفة الأشياء ... غداً عند ما يوارى محمد فى التراب ... ويصبح ذكراً وطيفاً كموسى والمسيح ... لن يفرق الناس بين محمد وموسى والمسيح، بل ربما قبل أن يواروه فى الحفرة ... أنظر ... أليس هذا عمر بن الخطاب أحد خلفائه ؟ اصغ إليه ...

عزرائيل — إياك أن توسوس له بشىء .

إبليس — إصغ إليه ...

[عمر بن الخطاب يقوم فى الناس صائحاً]

عمر — لا أسمعن أحداً يقول : إن محمداً قد مات ؛ ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى ، فلبث عن قومه أربعين ليلة . والله إنى لأرجو أن تقطع أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات !

عزرائيل — عجباً ! ما هذا الذى يقول ؟ !

إبليس — أرأيت ؟ إنهم قد شبهوه بموسى ولما يهيلوا عليه التراب !

عزرائيل — كذبت ! إنما هى وسوسة منك !

إبليس — صه ! أنظر ! هذا أيضاً رجل من بين الناس يريد أن يقول شيئاً ...

[ينهض أحد الناس صائحاً]

أحد الناس — إن رسول الله قد رُفع كما رفع عيسى ، وليرجعن !

عزرائيل — رباه ! ماذا أسمع !

إبليس — أرأيت ؟ إنهم قد شبهوه كذلك بعيسى ولما يدرجوه فى الأثواب !

عزرائيل — لست أصدق ما أرى وما أسمع

إبليس — قد قلت لك إنى أعرف منك بالبشر

عزرائيل — اللهم نورك ! كيف خفى على هؤلاء أن دينهم لم يكن تكريراً لما سبقه من أديان ! ... اللهم إنك منزه عن اللغو والتكرار !

إبليس — ما أبهج هذا النهار ! ألا تطربك أغنيتى :

ذهب عدوّى إلى الفنــاء
اليــوم عيدى فالى الغنـاء

عزرائيل — آه ، لو استطعت أن أبطش بك ...

إبليس — اقبض روحى إن قدرت ...

عزرائيل — ليس لك روح يُقبض.

إبليس — بل لى روح لا تستطيع قبضه يداك الصغيرتان!

عزرائيل — يداى حقاً لا تستطيعان؛ ولكن يد رضيع تستطيع ... إن روحك لتزهق فى اليوم ألوف المرات ... إن روحك لينطفئ فى قلب كل مؤمن ومؤمنة ومحسن ومحسنة وخيّر وخيّرة ... إن روحك مارد من دخان يستطيع طفل بكلمة طيبة أن يحبسه فى قمقم من نحاس!

إبليس — ولكنى لا أموت ولا أذهب إلى الفناء ... لأنى سلطان الأرض وروح الأرض ... ولن أترك الأرض ما بقيت دودة تسعى فى الأرض!

عزرائيل — إبق ما شئت فى الأرض، ولكنك لن تقوى على دحر أعدائك ...

إبليس — عجباً لك! أو لم تر كيف أنى فى لحظة استطعت أن أغير معنى الدين الذى قضى محمد حياته كلها فى تجليته وإظهاره وتوضيحه ...؟ ألم يذكّر محمد قومه فى كل وقت أنه بشر يوحى إليه ... وأنه يحيا ويموت كبقية الناس ... وأن دينه هو دين الحياة ... الذى يحل للناس كل وسائل العيش الصالح على هذه الأرض ... وما دام دينه دين الحياة والفطرة والمنطق البشرى ... فلا ينبغى أن يؤلهه الناس كما ألّهوا المسيح، ولا أن ينكروا إمكان موته كما فعلوا مع المسيح ... أليس هذا معنى دينه؟ فكيف إذن بدّل الناس الآن المعنى وانقلبوا يسيرون نحو فكرة التأليه؟ ...

عزرائيل — إنهم لم يغيروا شيئاً ... ولئن وقع فى نفسك شيء من كلام عمر بن الخطاب، فهو ولا ريب قد قال ما قال خوفاً من الردة!

إبليس — ولماذا يخشى ارتداد الناس عن الدين بموت محمد ... إنهم إذن كانوا يعبدون محمداً!

عزرائيل — اللهم ألق نورك فى صدور الناس!

إبليس — هيهات! إن ما تسميه « وسوستى » قد استقر الساعة فى صدور الناس ...

عزرائيل — خسئت أيها الخاسر ... أنظر ... أنظر ...

إبليس — ماذا؟ من هذا؟

عزرائيل — هذا أبو بكر يقوم فى الناس ... اسمع إليه ...

[أبو بكر ينهض فى الناس صائحاً]

أبو بكر — أيها الناس ... أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ... ومن كان يعبد الله، فإن الله حى لا يموت!

عزرائيل — وافرحتاه ... أسمعت؟

إبليس — ؟ ؟ ؟

عزرائيل — أنظر أيضاً ... أنظر ... هذا العباس يريد أن يقول شيئاً ...

[العباس يقوم فى الناس صائحاً]

العباس — أيها الناس ... والله الذى لا إله إلا هو، لقد ذاق رسول الله الموت، وإنه ليأسن كما يأسن البشر ... فادفنوا صاحبكم ... إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً ... أحلّ الحلال وحرّم الحرام ... ونكح وطلق وحارب وسالم ... وما كان راعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم ...!

[عزرائيل يلتفت إلى إبليس صائحاً صيحة انتصار]

عزرائيل — ماذا تقول الآن فى هذا؟ أغرب الآن عن هذا المكان ... لقد طهر معنى الإسلام، وتألق روح هذا الدين ...!

توفيق الحكيم

موقف العلم من الأديان اليوم
وحماية المسلمين من ضلالات المادية
للأستاذ محمد فريد وجدي



لقى رجال العلم الكونى من رجال الأديان — منذ أكثر من ألفى سنة إلى القرن السابع عشر — ما يلقاه الخصوم من الخصوم ، وبدل أن تتلطف حدة هذه الخصومة من ناحية المتغلبين — وهم حفظة الأديان — استحالت إلى وحشية جامحة ؛ فكانوا إذا آنسوا من رجل نظراً فيما يتعلق بالوجود وقواه العاملة فيه — أو فيما يتصل بعلل الظواهر الطبيعية — ألقوه حياً فى النار ، أو رموا به من حالق إلى مكان سحيق

فلما دالت للعلم الدولة بعد أدوار شتى من التطورات العقلية والاجتماعية فى القرن السابع عشر ، جعل حماته أكبر همهم ليس الانتقام من رجال الدين فحسب ، ولكن من الدين نفسه أيضاً ، حتى لا تبقى له دعوة فى الأرض ينخدع بها بعض السذج فيجد بعض ذوى المطامع من يستغلونهم لسد نهمهم من المال والسلطان

اشتد العلم فى إسقاط الدين ، فوضع كثير من رجاله مؤلفات للتدليل على سذاجة عقائده الأساسية ، وبينوا للناس أصولها من أوهام الجماعات الأولية وتداعى مبانيه حيال اليقينيات العلمية . وأكثروا من الحط من كرامة الدين فى كل فرصة سنحت لهم حتى لا تكاد تقرأ كتاباً علمياً لا تصادف فيه شيئاً من هذا التصدى . فأفضت هذه الحال إلى نفور مستحصر من الأديان فى نفوس الطبقات التى تتلقى نصيباً من الثقافة المدرسية

ولكن لما كان من أخص صفات العلم التطور فقد اقتضت به الحوادث منذ تسعين سنة إلى البحث الجدى فى عالم ما فوق الطبيعة ، ولكن لا كما كان يفعله الفلاسفة باستخدام قوى العقل فى التحسس منه ، ولكن على أسلوب العلم نفسه من المشاهدة والتجربة

عقدة النزاع الأساسية بين الدين والعلم

هذه العقدة بين الدين والعلم أن الأول يقول بوجود عالم فوق الطبيعة يتنزل منه جميع ما فى الكون من كائنات مادية ، وقوى عالية . وهو الأصل الأصيل فى وجود وقيام العالم المحسوس ، ويبتنى على هذا الأصل القول بوجود الخالق المدبر ، والروح الإنسانية ، والإلهامات الحيوانية ، والإبداعات التكوينية ، والوحى وخلود الإنسان فى عالم الأرواح المجردة ، الخ الخ . والعلم ينكر كل ذلك ، ويعده من الخيالات التصورية ، ويقرر أن المادة قديمة ، وأن كل ما صدر فى عالمها حتى القوى العقلية ، والروح الإنسانية ، إنما صدر بواسطة النواميس الطبيعية ، الملازمة للذرة المادية على سبيل التدريج والتطورات المتعاقبة

تورط العلم أخيراً فى بحثه الجديد عن عالم ما فوق الطبيعة على أسلوبه المعروف من التجربة والتمحيص وبدا لألوف مؤلفة من رجاله بضيص من نوره فأثبتوا نتائج تجاربهم وحداناً وجماعات فى مؤلفات ومحاضر ، قال عنها فيلسوف أمريكا الكبير « وليم جيمس » أستاذ جامعة « هارفارد » بالولايات المتحدة فى كتابه « إرادة الاعتقاد La Volonté de croire » بصفحة ٣١٣ من ترجمته الفرنسية

« إذا صدقنا الجرائد وأوهام الصالونات خيل لنا أن الضعف العقلى وسرعة التصديق هما الرباط المعنوى الجامع بين أعضاء هذه الجمعية (يريد جمعية المباحث النفسية الإنجليزية) ، وأن حب العجائب هو العامل المحرك لها ، ومع هذا فيكفى أن نلقى نظرة واحدة على أعضائها لدحض هذه التهمة ؛ فإن رئيس هذه الجمعية هو الأستاذ (سدجوك) المعروف بأنه أشد الناس شكيمة فى النقد ، وأعصاهم قياداً فى الشك فى جميع البلاد الإنجليزية ، ووكيلها المستر أرثر بلفور (أحد رؤساء الوزارات الإنجليزية وعالم مشهور) ، والأستاذ ج ب لنجلى . ويمكن التنويه من

أعضائها العاملين بالأستاذ ريشيه الفزيولوجي المشهور ، وتشمل قائمة أعضائها رجالاً كثيرين آخرين كفاءتهم العلمية أشهر من أن تذكر . فإذا طلب إلى أن أعين جريدة علمية تكون مصادر أغلاطها ممحصة بأدق الأساليب ، فإني أنوه بمحاضر جمعية المباحث النفسية . فإن الفصول الفزيولوجية التي تنشرها الجرائد الخاصة بهذا العلم ، لا تبلغ في دقة النقد مبلغ دقة هذه المحاضر المذكورة » اهـ

لما حدث هذا التطور العلمي الخطير ، مال رجال من كبار العلماء إلى النظر في النتائج التي تؤيد الدين منها . وما دامت عقدة النزاع بين العلم والدين هي وجود أو عدم وجود العالم الروحاني ، فإن هذه العقدة تحل إذا ثبتت صحة وجود هـذا العالم بدليل محسوس . قال العلامة (هـ . و . ميرس) المدرس بجامعة كمبردج في كتابه (الشخصية الإنسانية) في صفحة ١١ منه من ترجمته الفرنسية :

« حوالي سنة ١٨٧٣ حيث كان المذهب المادي بالغاً أوج سطوته على العقول ، اجتمع ثلة من الأصحاب في كمبردج وأجمعوا على أن هـذه المسألة المتنازع فيها (يريد مسألة عالم ما فوق الطبيعة) تستحق التفاتاً وجهداً جدياً أكثر مما عولجت بهما إلى ذلك الحين ... وكنت مقتنعاً بأنه لو أمكنت معرفة شيء من ذلك العالم على أسلوب يمكن أن يقبله العلم ويحفظه ، فلا يكون ذلك بالتنقيب في الأساطير القديمة ، ولا بوسيلة التأمل فيما فوق الطبيعة ، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة ، وبتطبيقنا على الظواهر التي تحدث بيننا وحولنا أساليب المباحث المضبوطة المنزهة عن الأغراض ، التي نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المرئي المحسوس . ومباحثنا في هذا السبيل يجب أن تكون مؤسسة على هذه القضية وهي : « إذا كان يوجد عالم روحاني ، وكان قابلاً لأن يدل على وجوده في أي عهد كان ، فيجب أن يكون كذلك في أيامنا هذه »

« فمن هذه الناحية ، وبالحرى على هذه الاعتبارات واجهت الجمعية التي أنا عضو منها هذه المسألة » اهـ

وقد مضت بعد هذا القول عشرات السنين وحدثت فيها بحوث عملية دونت في مئات من الكتب والرسائل ، تبين منها أن العلم حيال حقيقة ثابتة مؤيدة بالدليل المحسوس الذي لا يمكن التماري فيه حتى قال العلامة الفلكي الكبير (كاميل فلامريون) في كتابه القوي « الطبيعة المجهولة » :

« إني كلما أفكر في هذا الأمر أدهش من أن دهاء الناس لا يزالون يجهلون هذه المسائل كل الجهل ، على حين أنه قد عرفها ودرسها وقدرها حق تقديرها وسجلها منذ سنين ، جميع الذين تتبعوا حركتها بكل نزاهة في مدى هذا العهد الأخير

وقال : « إن المشاهدات الحسية تثبت وجود عالم روحاني محقق كتحقق العالم المادي المدرك بحواسنا الخمس »

نقول وقد قررت جامعات أمريكية دراسة هـذا البحث ، وجعلت له أخيراً جامعتا كمبردج واكسفورد مقعدين رسميين له

كيف نحمي المسلمين من ضلالات المذهب المادي ؟

إتصل المسلمون بالعالم العلمي منذ أكثر من قرن ، وظل رجال الدين وطلابه في عزلة عنه فلم يصبهم من ظلمات النظريات المادية شيء ، ولكن حركة التطور العامة دفعت بهم إلى الاتصال به من سائر طبقات الشعب ، تقريباً للثقافة الدينية من الثقافة العامة تفادياً من حدوث تناف بينهما ، فتصبح الأمة فريقين متنافرين والإسلام متين يقوم وجوده وتقوم دعوته على العلم : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ »

وقد ضاق الإسلام من يوم وجوده العلم ، وسمح لأهله أن يندفعوا في تياره ، وأن يستفيدوا منه ويشيدوا مجتمعهم عليه ، فكان أنبل مجتمع ظهر على سطح الأرض ، وكانت له دولة لا تغرب عن أقطارها الشمس ، فأقال عثرات الإنسانية ، وداوى كلومها ، وكشف ظلماتها ؛ ولم تعرف في تاريخ الإنسانية أمة قامت بالدين معتمدة على العلم غير الأمة الإسلامية

ولكن العلم الذي يدرس في مدارس المسلمين اليوم ، قائم على الأصول المادية البحتة للقرن التاسع عشر ، ولمثلها من أهل القرن العشرين ؛ فتجد كتبها التي بين أيدي الطلبة لا تزال تردد لهم النظريات الرثة العتيقة التي تخيلها ديموكريت اليوناني منذ أكثر من ألفين وثلاثمائة سنة وهي : « أن المادة لا تفنى ولا تتجدد » ، على حين أن علم القرن العشرين قد توصل إلى إفناء المادة وإحالتها إلى قوة ، فأثبت بذلك أن المـادة لم تكن ثم كانت

هذه المعرفة لها قيمة عظيمة في الدراسة الدينية ، لأن القول بعدم تجدد المادة وفنائها يؤدي إلى القول بقدم العالم المادي ، وهو أساس المذهب المادي وحصنه الحصين

وفي هذه المدارس الدينية تدرس الفلسفة ويقرر للطلاب فيها

أن الرأى المادى هو الذى ساد جميع الآراء ، وأن السلطان انتهى إليه ، وهو آخر طور من أطوار التفكير البشرى ، وما هو فى الواقع إلا مرمى المادية قبل التطور العلمى الأخير

وتدرس البسيكولوجيا (علم النفس) ، وكتبها المدرسية موضوعة على أسلوب الفلسفة المادية ، فيضطر طلبة الدين أن يقرأوا فيها : أن ليس للانسان روح مستقلة عن الجثمان ، وليس له ضمير فطرى يرجع إلى عالم علوى ، وأن كل ما فيه من شعور بالحسن والقبح ، وبالفضيلة والرذيلة ، وبالخير والشر ، أمور اعتبارية لا أصل لها فى وجود أرفع من هذا الوجود ؛ وأن الغرائز الأدبية ليست متنزلة من روح علوية ، ولكنها عادات أوجدتها مصلحة الاجتماع ، فرسخت فى الشخصية الإنسانية واعتبرت من الخصائص الروحية ، وليست من الروح المزعومة فى شئ

ويدرس لهم تاريخ الأديان ولحمته وسداه : أن الدين على ما هو عليه فى هذه العصور المتأخرة المهذب ، صادر من الدين الأولى الساذج الذى تخيله أهل القرون الأولى ، وليس هو بوحى ، لأن الوحى لا وجود له

ثم يقرأون فيها : أن الباعث الصحيح عليه أهواء النفوس، وجهالتها بالعلل الطبيعية ، وهلعها من الجوائح الكونية ، فتألبت كل هذه العوامل على إحلال الدين فى سويداوات القلوب بواسطة الوراثات الطويلة المدى ، حتى أصبح هو والحياة عند الفرد والجماعة فى مستوى واحد

فماذا ترجى أن تكون هذه المجموعة من الدروس ، غير دعاية للالحاد فى حرم الدين ، لم يظفر بمثلها المذهب المادى فى أية بيئة من بيئات العالم ، فى العهد الذى أثبت فيه العلم ، جريًا على أسلوبه كما قدمنا ، وجود العالم الروحانى ، وقام فيه أقطابه بنقد كل ما أورده المذهب المادى من الشبهات عليه ، سعيًا منهم لتوحيد غاية الدين المطلق وغاية العلم على حال من الوفاق كانت أمنية دعاة المدنية الفاضلة

الوسيلة المثلى لدرء هذا الخطر أن تخضع هذه الدروس فى المدارس الإسلامية الدينية لمراقبة دقيقة ، وأن تلقى موادها متبوعة بالنقد الذى وجه ضدها من علماء القرن العشرين، والتعديل الذى أدخل عليها بواسطتهم ؛ مع مراعاة أن يكون النقد ماحقًا لشبهاتها بأدلة ساطعة لا بكلمات جوفاء تزيدها تسلطًا على العقول

هذا خير ما أهديه لقراء « الرسالة » فى مفتتح السنة الجديدة ، ولهم منى معها أطيب تحية .

محمد فريد وجدى

تأملات

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى



ضلّت الإنسانية عن ربها وعبدت المال والقوة، ودانت لهما بالطلب والحرص والإكبار؛ وفى سبيل المال والقوة نُسى كل شىء: من دين أو فضيلة أو مبدأ، وفعل كل شىء من: ظلم وقطيعة ونكث. يخدع كلٌّ كلا فى السلم كما يتخادع أهل الحرب، كأن أيام الناس فى هذه المدنية حرب كلها ولكن بسلاح مختلف. فلحرب السلم سلاحها وفنونها وخططها، كما لحرب الدبابة والغواصة والطيارة. ففى السلم يتحارب الناس وتتحارب الأمم بالتجارة وحواجزها الجمركية، وبالصناعة وموادها الخام، ثم بالدعاية والسياسة؛ وفى سبيل ذلك يسخَّر الأدب بفنونه والعلم بفروعه، تتنافس فى ذلك الأمم، وتتنافس فى ذلك الطوائف والأفراد داخل كل أمة؛ حتى الفضائل جعلت سلاحاً وسبيلاً إلى الغلَب. فالتاجر إن صدق يصدق لا لأن الكذب يزرى، أو لأنه منهى عنه فى الدين، ولكن لأن الصدق يجزى ويربح، ولو وجد فى الكذب ربحاً لكذب. والأمم تتعاهد، فإن وجدت فى الوفاء ربحاً وفت، وإن وجدت الربح فى النكث نكثت. فالمال هو البغية، والقوة هى الغاية، والشهوة هى السائق، والهوى هو الغالب، كأن قد غلب على هذه المدنية فى معاملاتها روح الأحراج وقانون الأدغال؛ وما يقول « دروين » إنه كان غالباً على أنواع الحيوان فى أحقاب النشوء

ويل للانسان من نفسه ومن أخيه الإنسان حين يضل كلٌّ عن ربه. فلو لم يكن للدين ضرورة، لجعله حال الناس اليوم ضرورة؛ ولو لم يقم على وجوب التدين برهان، لكان ما آل إليه أمر الناس بعد ترك التدين هو البرهان. إلا أن الإنسان يذكر وينسى، ويؤمن ويكفر، ويطيع ويعصى، حسب الظروف. فى الشدة يلجأ إلى الله، وفى البلاء يكثر من الدعاء، ويستغفر ربه وينيب: يفعل ذلك الأفراد، ويفعل ذلك الأمم، حتى إذا استجاب الله وفرّج الكرب وكشف البلاء، نسى الإنسان ونسيت الأمم ما كانوا يدعون الله من أجله، وجعلوا لله أنداداً، وانقلبوا له أضداداً، وعادوا إلى آلهتهم من الشهوة والقوة والمال، كأن لم يكن بلاء وكربة، وكأن لم يكن دعاء وتوبة؛ وجعلوا يضحكون من خوفهم الذى كان، وجزموا بأن أسبابه لن تعود!

لقد كانت الحرب الماضية، وجاءت الناس بكرب لم يروا مثله من قبل، فجأر الناس إلى الله وجأرت الأمم، وجعلت تنذر النذور، وتبذر الوعود والعهود، وتقيم الصلوات العامة، تأمر بها الحكومات، ويركع فيها الحكام والملوك. ثم جاء النصر وجاء السلم، فذهبت النذور هباء، ولم تلق الوعود ولا العهود وفاء؛ وكل ما كان هنالك أن جىء بأسماء جديدة أطلقت على مسميات قديمة، فذهب الاستعمار وجاء الانتداب، وذهبت المحالفات وجاءت عصبة الأمم، وعاد الناس وعادت الأمم تبتغى الكسب وتبتغى المال والقوة، حتى كان من الأمم المنتجة من كانت تحرق ما زاد من غلات أرضها لتبيع الباقى من الأمم الأخرى بثمن أعلى، وانحدر المال إلى خزائن بعض الأمم، كما ينحدر الماء إلى مهابطه من الأرض، فجفت بقاع منه وغرقت بقاع، وجاعت أمم وتخمت أمم، وانقلبت الأوضاع واشتد النزاع، وخسرت الإنسانية السلم، فخسرت بذلك الحرب قبله، إذ قامت هذه الحرب

قامت هذه الحرب فما ذا كان؟ كان الذى يعرف كل إنسان أنه كان فى الحرب الماضية: فالنذور تنذر، والوعود تبذر، والصلوات العامة تقام؛ وأصبحت الأمم المتمدينة لا ترى أهنأ من الأمن، واعتزمت فى مستقبلها أن تتناصف فى قسمة المواد الخام لتعيش إلى الأبد فى سلام!

إنها مدنية مجنونة هذه التى تنسى الله وتعصاه فى الرخاء بعد

أن كشف عنها البلاء ، حتى إذا أخذها بنكثها وإثمها جأرت إليه تسأله النجاة ولم يكن لديها ما تتعهد به للناس أو تنذره لله إلا أن تتعايش فى سلام ، وتتناصف فى المواد الخام .

لقد أفلست المدنية الغربية وحق عليها ما حق على المدنيات الخاطئة قبلها . وها هى تنتسف بقوتها الكامنة التى من الله بها عليها فلم تطعه فيها . ها هى حين فسقت عن أمر الله تنفجر بما اختزنت من علم ومال حولتهما فيما حولت قنابل وطرابيد تلقى من الجو وتنثر فى البر والبحر على المحارب وغير المحارب على السواء (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) إنها مدنية كتلك القرية التى ضربها الله مثلاً فى القرآن : (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)

إنها مدنية مسيحية اسما لكنها لم تقم قواعدها على نصرانية ولا إسلام . فنصرانية عيسى صلوات الله عليه ليس فيها حرب ولا سلاح ولا استعمار . والحرب فى الإسلام لا تكون فى سبيل الفرد ولا فى سبيل الأمة ولا فى سبيل الجنس ، ولكن فى سبيل الله ليكون الحكم فى الأرض لله .

إن الاستعمار الذى ابتدعته مدنية الغرب ليس من الإسلام فى شىء ، ولا من حكم الله فى شىء . فاستغلال القوى الضعيف فرداً كان أو أمة ينكره الإسلام كل الإنكار . وتحكم أمة فى أمة بالهوى لا يعرفه الإسلام ولم يشرعه الله . وعلو أمة على أمة وشعب على شعب أو جنس على جنس حرمه الله الذى سوّى بين الناس وساوى بين الأجناس ولم يجعل لأحد على أحد فضلاً إلا بالتقوى : تقوى الله الذى خلق الأحمر والأصفر والأبيض والأسود . ففيم استعلاء فريق على فريق ؟ وفيم تحكم لون فى لون أو شعب فى شعوب ؟ (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير) .

لقد أعز الله الإنسانية أيما إعزاز حين جعلها خاضعة له وحده سبحانه فى الحكم ، ليس لأحد على أحد سبيل إلا بحق الله طبق دين الله الذى بينه للناس واضح المعالم ظاهر الحدود فى كتابه الكريم الذى فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً فى حياته الكريمة التى مثلت حياة الأمم وحياة الأفراد كيف ينبغى أن تكون .

لقد علم الله أن هذه المدنية المعقدة ستكون ، وأن الإنسانية ستتقلب فى أطوارها التى تقلبت فيها ، وأنها ستفتح لها أبواب العلم ، وأن هذا العلم سيفتح لها فنوناً من القوة ، وأن هذه القوة ستسلمها إلى صفوف من المشكلات لا تحل حلاً مرضياً موفقاً إلا طبق ما سن الله للفطرة من سنن ، وللنفس البشرية من قوانين ، عرفت الإنسانية بعضها ، وجهلت منها أكثر مما عرفت . فلو أن الإنسانية وكلت إلى نفسها وعلمها وجهدها وحده ما خرجت ، وما أمكنها أن تخرج من ورطاتها التى هى لا بد واقعة فيها بتعمقها فى العلم الطبيعى الذى يفتح لها كنوز الأرض من غير أن يريها طريق العدل فى استعمالها . فأراد الله سبحانه أن يتم نعمته على الإنسان بأن يجمع له بين القوة وبين الهدى فى استعمال القوة ، فآتاه العلم ، وقبل أن يؤتيه العلم أنزل عليه الكتاب والحكمة ليريه كيف يتقى شر العلم وينتقى خيره بالوقوف فى استعماله عند الحدود التى حدها الله فاطر الإنسان وفاطر القوى التى سخرها بالعلم للانسان . فاذا كان من عجيب صنع الله للانسان أن وهبه العقل الذى استفتح به كنوز العلم ، فإن أعجب من ذلك أن تفضل سبحانه فأنزل له الدين ليقيه ما لا يمكن العقل ولا العلم أن يكفوه إياه من الشرور والأخطار

أقسم أن نعمة الله على الناس فى الدين أعجب وأكبر من نعمته عليهم بالشمس أو بالقمر أو بما خلق فى الأرض من كائنات ينعم بها الإنسان أو لا ينعم ، شكوراً أو غير شكور . إن هذه الكائنات خلق من خلق الله ، والإنسان واحد منها يقوى أمام بعض ويضعف إزاء بعض ، ينتفع بها أحياناً ويتضرر بها أحياناً ، لكن الدين خير كله ونفع كله وسعادة صرفة لمن يتقبله مؤمناً ، ويعمل به مسلماً . وأقسم لو سخرت العلوم هذه الكائنات كلها للانسان وكان الإنسان بتسخيرها يتمتع فى هذه الحياة المتعة كلها من غير تعب ولا ملل ولا هم ولا حزن ولا ضعف ولا مرض حتى إذا مات كان الحساب وكان العقاب إذن لكانت نعمة الله على الإنسان بالدين الذى يقيه عذاب الآخرة ويؤتيه نعيمها أكبر من نعمته عليه بالعلم بقدر ما بين الآخرة وبين الدنيا من فرق وفضل فى المدة

وطولها ، أى بقدر ما بين الباقي وبين الفانى أو بين غير المتناهي والمتناهي من فرق وفضل . فكيف وهذه العلوم لا تسخر للانسان إلا جزءاً ضئيلاً مما حوله ، وقد يشقى بما يسخر له منها وقد يسعد ؛ وهو فى أحزانه وهمومه ، ومحابه ومكارهه ، وأمراضه ومصائبه ، لا يجد سلوى ولا مخرجاً ولا عزاء إلا بالدين، وبطاعة الله فى الدين .

وكيف وهو لن يلقى النعيم الصرف الذى لا يخالطه عذاب، والسعادة المحضة التى لا يشوبها شقاء ، إلا بعد هذه الحياة فى حياة أخرى لا نهاية لها ولا أجل إذا كان قد أطاع الله وعمل فى دنياه بالدين

على أن هناك معنى فى الدين الإسلامى أكرم الله به الإنسان كرامة لا يقوم بها شكر ولا ينقضى منه عجب التفكر ، ألا وهو تفضل الله جل جلاله بمخاطبة الإنسان من كتاب من عنده سبحانه على لسان رسول من البشر تقوم الأدلة القاطعة على صدقه .

إن مجرد مخاطبة الخالق للمخلوق كرامة دونها كل كرامة يكبرها ويجلها الإنسان فى الدنيا ، فكيف والخطاب فى كتاب عظيم كريم مبين . الحق سبحانه هو المتكلم فيه ، فليس لبشر فيه جملة أو كلمة أو حرف ! كتاب من عند فاطر الفطرة وصفه فيه جل وعلا بصفة الفطرة بقوله : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »

أليس من أكبر الكرامة أن يذكر الله الإنسان ولا ينساه ، وأنه يوجه إليه الخطاب فى كتاب يهديه به سبحانه سبل السلام وسبل الهدى والنور ؟ أليس من أكبر النعمة حين علم الخالق سبحانه ضعف الإنسان وجهله وما يتهدده من جرائهما من أخطار أن ينزل عليه نظاماً لحياته هو وفق الفطرة التى لم يكن الإنسان ليحيط بها ولا بسنن الله فيها ؟

إن العلم شئ وتطبيقه من غير خطأ أو خلل شئ آخر . فلو أن الإنسان أحاط بالفطرة علمه لما استطاع أن يطبقها على حياته تطبيقاً محكماً لا خلل ولا عوج فيه . بل إن صعوبة التطبيق وإصابة الحكمة فيه لتزداد بازدياد ما يراد تطبيقه وتفرعه . فالإنسانية بقواها العقلية المحدودة أعجز من أن تحيط بالفطرة علماً ، ولو علمت لكانت أعجز من أن تطبق علم الفطرة وتنتزع منه نظاماً عملياً لحياة الإنسانية فى عصر واحد بله جميع العصور

فإن الخالق البارئ الحكيم قد جمع للانسانية بين علم الفطرة وبين إحكام تطبيقه على الحياة حين أكرمها بالإسلام دين الإنسانية الكامل الشامل الذى أنزله على محمد نبى الهجرة صلوات الله عليه .

فاعجب إذن للانسانية كيف تتخبط وبين يديها الهدى ، وكيف تشقى وفى متناولها السعادة ، وكيف تموت وعلى مقربة منها الحياة ؟!

ثم اعجب عجباً بعد عجب من قوم يزعمون من بين الإنسانية أنهم مسلمون إلى الله مؤمنون بالكتاب الذى أنزل والرسول الذى أرسل ، ثم هم يعطلونه ولا يقيمونه ، ويضيعونه ولا يحفظونه ، بل هم يلتمسون الهدى فى غيره ، ويتطلبون الحياة ممن ضل عن روحه ونوره ، ويولون قلوبهم ووجوههم لاشطر المدنية الإسلامية التى أقامها الرسول بتطبيق كتاب الله فكانت مثلاً عملياً أعلى للانسانية كلها ، ولكن شطر المدنية الغربية التى ضلت عن ربها وعبدت المال والقوة والجاه فأداها ذلك إلى التهلكة التى ترى والتى تحاول التخلص منها فلا تستطيع

فريق من الإنسانية يهدم النور فلا يستنيرون به ! وفريق فى الظلمات يظنون أنفسهم فى نور ! أيهما يا ترى أظلم ؟ ولأيهما يا ترى تكون النجاة ؟

محمد أحمد الغمراوى

الشجاعة وأثرها فى الإسلام

للأستاذ محمد عرفه



لو قيل لى أى الأخلاق الفاضلة كان له الفضل فى ظهور الإسلام وانتشاره لما ترددت فى أن أقول الشجاعة. فالشجاعة الأدبية والشجاعة الجسدية هما الدعامتان اللتان قام عليهما الإسلام، وبفضلهما انبثق نوره فى سائر الأرجاء؛ أو قل إن الشجاعة الأدبية والشجاعة الجسدية نوع واحد مرجعه إلى جراءة القلب، والاعتماد على النفس، وعدم الخوف من أحد؛ فإذا وجد صاحبهما حقاً مهيضاً نصره، وإذا وجد باطلاً عرماً خذله بحد اللسان أو بشبا السنان

ولقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أشجع الناس فى قول الحق والجهر بما يعتقد، وبحسبك أن قومه كانوا يقدسون الأصنام ويرونها الحق الذى لا ريب فيه، والصدق الذى لا تحوم حوله شبهة؛ وكان يعلم أنهم يتعرضون لشبا السيوف وملاقاة الحتوف محاماة عن أصنامهم وذباً عنهم، فلم يمنعه ذلك من أن يجهر بالحق ويعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، ويصيح فى وجوههم: « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » . « ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ؟ » . رباه الله على الشجاعة الأدبية والجهر بما يعتقد فقال له : « يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر » . وقال : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين » . وقال : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » . وأبان له أن كتمان الحق موجب للعنة الله والناس « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » ؛ فعلم أن فى العالم حقاً وباطلاً وخيراً وشراً ، وأنه يجب على الأنبياء والمصلحين أن يكونوا نصراء الحق والخير وأعداء الباطل والشر ، وأن عليه أن يذكى هذه العداوة ويؤجج نارها حتى يديل الله الحق والخير من الباطل والشر . وكما كان صاحب الدعوة صلوات الله عليه المثل الأعلى فى الشجاعة الأدبية ، فقد كان كذلك فى شجاعته الحربية أعظم مثل وأروعه ، يدل على ذلك قول علىّ : « إنا كنا إذا حمى البأس واحمرّت الحدق اتقينا برسول الله (ص) فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً » ؛ ووقفته الخالدة يوم أحد ويوم حنين حين فر الشجاع وارتعد الصنديد أكبر مثل وأعظم برهان

ولقد ربى الإسلام المسلمين على الشجاعة وحببها إليهم وزينها فى قلوبهم « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » حتى جعل الجنة تحت ظلال السيوف ، وما زال يربيهم على الشجاعة والقوة والمنعة إلى أن صاروا فيها مُثُلاً عُليا وأمثالاً مردّدة ؛ ففرض الله عليهم أن يثبت الواحد لعشرة ولا يفرّ منهم ، ثم خفف عنهم وأوجب أن يثبت الواحد لاثنين ولا يفر الجيش من ضعفه « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، ألآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله »

وكان من أثر الشجاعة فى النبى وأصحابه أن عزّ الإسلام والمسلمون وصاروا أمنع من عقاب الجو وجبهة الأسد ، لا تلين قناتهم ولا يسلمون لمن أرادهم ، فلم تضعفهم قلتهم وكثرة أعدائهم وكان للاسلام العزة وللمسلمين التمكين فى الأرض

وكان أولو الأمر من المسلمين الأولين يحافظون على قوة نفوس

المسلمين كنبع لعزة الدولة الإسلامية ، ويعلمون أنهم إذا عاملوا الرعية بالقهر ذلُّوا لهم فذلُّوا لغيرهم ولم يكن فيهم غناء ، فبالغوا فى المحافظة على روح المسلم أن تذل وكرامته أن تمتهن ، بل جاوز ذلك غيرَ المسلمين ممن تظلهم الدولة الإسلامية برعايتها . ضرب ولد لعمرو بن العاص قبطياً فبلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب فأرسل إلى عمرو وابنه وقال : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ لا ، بل لقد كانوا يفرحون إذا وجدوا فى الأمة ما ينبىء عن قوة نفس وشجاعة قلب وجرأة على قول الحق . خطب عمر بن الخطاب فى خلافته فقال : « أيها المسلمون إذا وجدتم فىَّ اعوجاجاً فقوّموني . فقام رجل من المسلمين وقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ، فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من إذا وجد فىَّ اعوجاجاً قوّمني بسيفه . وذلكم مدى عناية الإسلام بالشجاعة ومدى ما كان لها من أثر فى ظهوره وانتشاره

بل إن الحضارة لم تتقدم وإن المدنية لم تنهض وإن العلوم والمعارف لم تعلُ إلا بفضل الشجاعة

يرى المصلح نظاماً فاسداً فى المجتمع أو رأياً قائلاً فى السياسة فيشن عليه حرباً شعواء ، يظهر عيوبه ومساوئه غير مبال بسخط الساخطين وغضب الناقمين ، ويستمر فى حربه وجهاده حتى تصبح آماله فى الإصلاح حقائق واقعة ، فينقذ الأمة من شر وبيل .
ويرى العالِمُ جهلاً قد جعل علماً وعلماً قد جعل جهلاً فيجهر بما يعتقد . يحارب الجهل ويشايع العلم ، فإن لم يكتب له الظفر فى حياته كان لفكرته النصر فى مستقبل الأجيال .

وبهذا تقدمت العلوم ، ونهضت الأمم ، وارتقت البشرية ، وذهبت أوضاع اجتماعية كانت داء وبيلاً ، وحل محلها نظم هى خير وأبقى .

فإذا رأيتم أمماً ترزح تحت أنظمة فاسدة وعادات بالية فاعلموا أنها لم تعط الشجاعة الأدبية لنقد الفاسد من أنظمتها والباطل من تقاليدها فتخلفت حين جد الركب وسارت القافلة .

على أن قوة نفوس الشعب وغلبة الشجاعة على أبناء الأمة أمر لا يأتى عفواً ، إنما هو نتيجة علم وافر وسياسة عادلة ونظام دقيق وإصلاح عام يتمشى فى جميع مرافقها ؛ وأول شىء فى سبيل ذلك أن يعلم أن النفس الإنسانية إذا استبد بها وأسىء الاحتكام فيها ذلت وضعفت وذهبت منها معانى الرجولة من النشاط والقوة والحزم والعزم والاستقلال الذاتى ؛ وإذا رفق بها وعوملت باللين وأحسنت رعايتها عزت وعظمت وكان لها من القوة والعزة والشمم القدر الذى تصلح به وتقدر على إصلاح من معها ؛ فإذا علمت الأمة ذلك وراعته وكانت سياستها فى الحكم والاجتماع والتربية سياسة رفق ولين فى غير ضعف ولا خور اطرد تقدمها ورقيها .

أيها المسلمون :

إذا رأيتم أنفسكم متخلفين عن ركب المدنية فاعلموا أن ذلك منكم وما كان يقدر أن يفعل ذلك بكم أحد سواكم . ملك بعضكم بعضاً ملكة قهر وغلب ، واستبد بعضكم ببعض فأفسدتم نفوسكم وجردتموها من معانى العزة والقوة ومن مقومات الحياة الذاتية الثائرة ، فضعفت الشجاعة فيكم وضاعت من بين جوانحكم ، وإذا فقدت الشجاعة فقد فُقد كل شىء ؛ ولو كشف لكم عن حقائق الأمور لرأيتم كل واحد منكم قد أخذ معوله بيده وأخذ يهدم جاهداً فى نفوس الآخرين ، فالأب يقتل نفوس أبنائه ، والزوج نفس زوجه ، والمعلم نفوس المتعلمين ، والرئيس نفوس المرؤوسين ، وهكذا أصبح كل من له رعاية يستبد فيها بالآخرين ويسىء حكمهم ويقتل فيهم روح القوة والرجولة

أيها المسلمون :

إذا أردتم أن تساهموا فى بناء المدنية الحاضرة فإنى أوصيكم بواحدة : أن تبقوا على رجولتكم وشجاعتكم وذلك بأن تعدلوا فى سياستكم وتحسنوا فى رعايتكم ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ؛ فالرجل راع على أولاده ، والرئيس راع على مرؤوسيه ، والحاكم على محكوميه ، والمعلم على تلامذته . عليكم بالرفق فى معاملتكم ، والإحسان فى سياسة من تلون أمورهم ، والمحافظة على كرامتهم كما تحافظون على كرامة أنفسكم . ولتكن آثرَ الحكومات لديكم أرفقُها بكم ، وآثرَ الرؤساء عندكم أعدلُهم فيكم ، وأحبَّ الناس إليكم من يحافظ على كرامتكم ومن يعمل على أن تكون نفوسكم قوية وأخلاقكم فتية . وليكن أبغض الناس لديكم من يعمل على أن تكون نفوسكم مهينة وأخلاقكم خائرة ضعيفة ، واجعلوا صديقكم من الكتاب من ينصحكم ويسمو بكم إلى آفاق الفضيلة والكمال ، واجعلوا عدوكم منهم من يغشكم ويستغل غرائزكم الحيوانية ، ومن يقول لكم ويقول

متى النور يا ظلمات

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف



أطبق الظلام على جميع آفاق الأرض . . . واختفى النور الصناعي الذي كانت الإنسانية تتسلق عليه إلى سُبُحات الجمال الموقوت والفن الفاني والطمأنينة الكاذبة . . . وارتدت الأحلام السعيدة إلى واقع الشجن والألم والانتكاس ، فعانقت أشباح الكهوف والمغارات ... وصارت قلوب بنى آدم أوكاراً لمخلوقات شنيعة شوهاء هن بنات الظلام والغدر والخيانة والجريمة والخديعة ...

ثم لا تأخذون مما يقول روحاً سامية، ولا تستفيدون منه سموّاً خلقياً

ويومئذ تجرؤون على كلمة الحق فتنقدون الأنظمة الفاسدة، والتقاليد البالية والأوضاع الضارة . ويومئذ تنتقلون من فساد إلى صلاح ، ومن ضعف إلى قوة ، في جميع شؤونكم وفي جميع مرافق الحياة فيكم

ويومئذ تسيرون مع ركب الإنسانية للعمل لخير الإنسانية ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

ولم يَعُدْ للانسانية غير ينابيع نور الطبيعة تستصبح به ... لم يعدْ لعيونها غير الشمس والقمر والنجوم ... ولم يعد لقلوبها غير نور النور قبل الأزمنة والدهور ... ولم يعد لأفكارها غير مبادئ الحق الواضح في الطبيعة .

أما الفلسفات والآراء والنظريات البراقة التي رددتها منابر المعاهد والمجامع ومجالس الترف العقلي ، فقد اختفت مع اختفاء الأنوار الصناعية التي أوقدتها الأيدي المظلمة النجسة التي لم تتطهر بنور الله ، وقد طارت بكتبها وسجلاتها قذائف الحديد والنار ...

ترى : هل تكون أمواج هذا الظلام طوفاناً يغسل الأرض من ذلك النور الصناعي المدلس المدخول الذي لم يجر من منابع الحب ويد الله ، وإنما من يد الشيطان الذي طمس وجه الحياة ، وجعلها في نظر الأحياء ليست أكثر من اقتناء الفحم الأسود و « الفحم الأبيض » والذهب الأصفر و « الذهب الأسود » ؛ ثم أغراهم بذلك وجعلهم وراءه يتراكضون تراكض الذئاب بالأظفار والأنياب في عصر العجز والقصور ، وبالفياصل والمناصل في بدء عصر التغلب والقدرة ، ثم بالطائرات والغائصات والبارجات والجرارات في عصر بلوغ الأشد واكتمال السلطان ! ؟

أم أن القلب البشري لا يزال ولن يزال يعبد الظلام ويفيء إليه ويأنس بسكانه ، ويرى في عالمه عبقريات يجب الرجوع إليها على فترات من الزمان ؟ ولن تزال وثنيات الجنس وخيلاء القومية وعبادة البطش وشهوات الاقتناء عقائدَ مقدسة يُقَدَّسُ لها وتصطنع في حبها ترانيم وأناشيد ، وتقدم لمذابحها قرابين من اللحوم البشرية ، ولمجامرها بخور وعطور من الأموال والمقتنيات حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؟

أما أنا فقلبي تغمره موجة من التفاؤل الأكيد حول مستقبل سعيد قريب للانسان ، وظني أن هذه الظلمات تتمخض عن فجر أبلج وضاح يغمر آفاق الأرض غمراً طويلاً كما غمرتها هذه الظلمات طويلاً ... لأن قواد المعسكرين الهائلين المتحاربين لا ينفكون يرددون على أسماع الأمم التي في أيديهم أزمتها ومقاليدها ؛ أنهم يحاربون في سبيل خلق عالم إنساني عادل سعيد هانئ بعد الحرب ؛ فإذا حدثت القوادَ نفوسهم أن يخيسوا بعهودهم وينقضوها ، فإن المجهودين المهوكين من جنود الحرب وعمالها

ومنكوبيها سوف ينكلون بهم تنكيلاً ، سواء أكانوا منصورين أم مخذولين ، لأن الجرائم التي ارتكبت في هذه الحرب لا تغتفرها الشعوب إلا إذا رأت أنها أسلمت الناس إلى عالم أسعد وأكمل من العالم الحالي ، ولأن الحياة الاجتماعية لا تحتمل حرباً كهذه الحرب التي تدمر الإنسان مع ما أقامه من المدن والأعمال ومخلفات التاريخ ومقدسات العقائد والوصايا الخلقية بالأطفال والعجزة والشيوخ والنساء ... ولأن حرباً بعد هذه الحرب لا بد أن تكون أدهى منها وأمر ، بحيث تسحق براعم الحياة المدنية وأصولها سحقاً لا يبقى ولا يذر ، بما وصل إليه هذا الإنسان العجيب وما سيصل إليه في فترة السلم التي تعقب هذه الحرب ...

ويخطئ من يظن هذه الحرب صورة من ذلك العراك التقليدي بين بني البشر ، وأنها ثورة غرائز وحب غلبة بين مجموعة ومجموعة من أمم تحب الحرب للحرب ، وتمجدها لا لشئ إلا اندفاعاً وراء تلك الغرائز والحركات التاريخية الموروثة ... إن من يظن ذلك ذو نظرة متخلفة ، لا تزال تعيش في حدود النظرات الأولى للانسان ...

إن هذه اللحمة الكبرى تحول عميق أصيل عظم في توجيه الحياة ... الحياة الخاصة للأمة الواحدة ، والحياة العامة للأمم جميعاً ... فلنتيقظ لهذا ، ولنؤمن به ، ولنعمل له ...

وإن القدر يؤذن بميلاد حياة جديدة ، وابتداء دورة زمنية بعقل الإنسان وقلبه وجسمه بعدهذه الحرب الحُطَمة الضَّرُوس التي تهدم مثل العالم القديم الضيقة بمثلها وأفكارها الحرة ، كما تهدم مبانيه ومخلفاته بالديناميت ...

وها هي ذي مواكبها ومراكبها وجراراتها العنيفة وزواحفها وطائراتها القاذفة والنقضة والمترنحة والشراعية والهابطة ، وصواريخها وأبواقها وأنفاسها في الأثير ، وعيونها الكشافة ، وحشود جيوشها الآخذة من شمال الأرض وجنوبها وشرقها وغربها في قاراتها الخمس وبحارها السبعة ومن وراء كل أولئك عقول جبابرتها وأساطين علمائها ، ومعاملها الساهرة ومناجمها الحافرة ، ومحادثاتها السرية والجهرية ومؤامراتها والدماء والأرواح المبذولة فيها من الجيوش البيضاء والسوداء والصفراء والحمراء ، والعروش المقوضة والصوالج والقاليد المحطمة ، والحديث عنها بكل لسان وبين كل قبيل من المتحضرين والهمج ...

ألا إن الحياة تنقل أقدامها بهذه الحرب إلى المجاهل حينما رأت أن كثيراً من بنيها لم ينهضوا بعد من مراقدهم في الكهوف والغابات لمشاهدة مواكبها الحديثة التي دقت نواقيسها في الآفاق ولم يشتركوا في حمل قوائم عرشها العظيم الذي من لم يره ويدرك أسراره لا يمكن أن يقال عنه إنه ابن زمانه وإنه حقق الغاية المنشودة من إخراجه للحياة في زمن بعينه ...

ولما رأت أن نورها في دور السلام والاستقرار استأثر به جماعة من الأوصياء الأنانيين ، وتركوا غيرهم من القاصرين يخوضون في الظلام والجهل ، حولت ذلك النور إلى شعل ذات لهب وحريق يأكل هذه الصدور الأثرة الأنانية التي ما عرفت قصد الحياة من وضع مصابيح النور في أيديها وخانت أمانات الاستخلاف .

فمن الذي لا يستيقظ ويتنبه بعد كل هذه الضجة النكراء ويسرع إلى موكب الحياة العظيم بالجسم الخفيف القوى الصحيح والفكر اللطيف اللماح العالم ، والقلب المؤمن العارف الحامل لأمانات الحياة ؟ !

***

وإذا أعرضت الإنسانية ونسيت آلامها الحاضرة وبؤسها وشقاءها بهذه الحرب وتركت الأنظمة الجائرة الغاشمة المغلوطة تتحكم فيها فويل لها ثم ويل لها ! وويل للذين يقودونها ! وتعساً للمكتوين بنار الحرب من العمال والصناع والجنود إن لم يقفوا في وجه اللاعبين بالشعوب !

ما أجمل إخاء العالم الإنساني ! وما أقربه في القلوب البريئة من أكثر الناس ! لولا الذين يؤرثون في صدورهم نار الحرب والحقد ببعض الأناشيد وإثارة الذكريات الجاهلية والخيلاء العسكرية والألوان الدموية المهيجة !

إن الثيران تظل هادئة مستأنسة حتى يثيرها مثير باللون الأحمر فيحولها إلى وحوش فاتكة ...

وكذلك قطعان ابن آدم تريد الهدوء والاستئناس حتى يثيرها مثير بالكلمات الحمراء والحماس الكاذب وحب الشهرة عن طريق الحرب والتخريب حين لا يوجد مجال لبعض الرجال للشهرة عن طريق السلم والعمران وإضافة شيء إلى بناء الحياة

***

وما أعظم خسارة الإنسانية فى أبناء السلم الذين ذهبوا فى ضحايا هذه الحرب !؟

إنهم إنسانية عالمة عاملة مدربة ماهرة كانت قد نجت من عوامل الموت والجهل والجفوة وتعبت فى تربيتها ثقافات السلام التى استحدثت بعد الحرب العظمى الماضية

إنهم ثمار كبيرة نمت فى جمال وصحة ولكنهم الآن يموتون فى جفاف الصحارى وزمهرير الثلوج ، وعلى أذرع الموج الفاغر والهواء المخلخل وتحت أثقال الحديد وبين صعق القذائف ! وهكذا يذهبون طعمة لوحوش الفلوات وأسماك البحار وتتساقط أعضاؤهم بين ركام الثلوج كأنهم عصف مأكول أو هباء منثور

فما أعظم خسارة السلم فيهم بعد انتهاء الحرب حين تفتقد العناصر العالمة العاملة الفتية فلا توجد إلا بعد حين !

ولكنهم قربان لا بد من تقديمه فى سبيل مطلب عظيم !

وقد مات الميت فليحى الحى !

* * *

وما أعظم ما تحتمل أعصاب البشر ! إنهم برهنوا على أن أرواحهم أقوى من الفولاذ والديناميت ؛ إذ رضوا أن يغدوا ويروحوا على مواقع هذا الموت الفظيع والعذاب الوجيع ، وهم مع ذلك يطيعون وينشدون . . . وإذا رضوا أن تهدم ديارهم وأموالهم وتنسف أطفالهم وحبيباتهم ...

ذلك تحرر وانطلاق فى سبيل العزة وصيانة العقائد

أين صور الأهوال ووقعها فى القديم ؟ من كان يظن أن يعيش فترة ينتظر فيها نزول الصواعق والنواسف كل لحظة من السماء ، وهو مع ذلك يأكل ويُباعِل ويرقص ويغنى ويقتنى الأموال وينشد الرفاء والأطفال ؟

من كان يظن أن يفعل الناس هذا وهم فى ساحات هذه القيامة ؟ ! ما أوثق ما ربط الله الإنسان بالأرض !

هذه النفس البشرية أقوى وأبقى من هذه الأهوال لأنها هى التى صنعتها ولذلك لا تخشاها ...

ألا يجوز أن يكون هذا الاحتمال الصابر الذى بدا من النفوس البشرية تحت آلام النار والحديد تدريباً لها من الأقدار العليا وإعداداً لمستقبل مجهول ستحتمل فيه آلام اختراق الحجب الكثيفة التى تحول بينها وبين علم الكثير من غيب السموات والأرض ؟ !

ألا يجوز أن يكون هذا التسابق العنيف بين الدول التجارية فى اختزال الأبعاد والمسافات واقتحام العقبات إنما هو حَبْوٌ على عتبات باب من الانطلاق والتحرر ؟

ألا إنها الطبيعة الجامدة الميتة تلبس هذه الأجساد الحية الثائرة المترعة بالحياة المتجددة ، الآخذة من موارد علم الله وقوته وقدرته !

ألا إنها القوى التى طال سجنها وكونها فى صدر الأرض ، وجدت سبيلها إلى الانطلاق والظهور على يد الإبن البكر للأرض !

ألا إنها جنٌّ خفية تركب مراكبها وتتدافع منطلقة من سجونها فى التراب ...

أطلقتها يد الإنسان الذى لا يزال ذاهلاً عما يصنع ذهول النحل عما تمزج ، أو دودة القز عما تنسج !

* * *

هذه الحرب عملية هدم ما على الأرض وما فى نفس الإنسان ليحدث الله بعد ذلك أموراً ... ولن تنتهى إلا بعد أن تشمل موجتها كل البقاع ... استيقظ على قوارعها سكان خط الاستواء فى مجاهل القارة السوداء ، وسكان الأراضى البيضاء وما بينهما وسكان الجزر النائية المنثورة فى المحيطات وامتزجت منهم جميعاً جيوش فى جميع البقاع تقاتل فى سبيل غاية واحدة ...

وإن الأقدار تحررهم من التاريخ السيء و « تصفى » ميراث الشراهة والحقد ...

فهذه آثار لندن العزيزة على أهلها تهدم . . . هدمها الإنجليز لا الألمان ! لأنهم لم يسلموها لهم كما سلم الفرنسيون باريس ... بل تحرروا من حبها وقدموها دون حُرِّيَّة نفوسهم وعقائدهم فى الحياة ... ولا بد أنهم قد علموا بعد أن نَخوْت مدينتهم على عروشها أن النفس هى الباقية أو هى الجديرة بحرص المرء على بقائها سالمة كريمة وما عداها ففداء لها . وتلك حقيقة من حقائق الإيمان كان الإنجليز قد فقدوها حينما تدفقت عليهم سيول الأموال من بقاع الأمبراطورية قروناً طويلة

ولا بد أنهم تذكروا كذلك أن حرية كل شعب محكوم لهم يجب أن تكون أعز عليه من كل شىء ، بعد أن هددت حريتهم من عدو غاشم جبار فعرفوا ذلك وكانوا قد نسوه أيضاً فى تلك الفترة الطويلة التى حكموا فيها أمماً ولم تحكمهم أمة . . . وبالطبع سيكون لعلمهم وتذكرهم هاتين الحقيقتين من حقائق الإيمان أكبر الأثر فى عملهم على إقامة عالم سعيد على أنقاض القديم . وإذا نسى

الإنجليز أو تناسوا تلك الحقائق بعد هذه الحرب فسوف لا ينسى الأمريكان الذين كانوا بنجوة من الحروب الحديثة وويلاتها بعد أن تحرروا من وثنيات الأجناس والدماء المختلفة ونعرات القوميات المفرقة وسُعّار الاحتكار والاستعمار ...

***

أجل إن الأقدار ذات الحفاوة بالإنسان ما كانت لتترك هذه المجموعة الكبرى من الأمم التي تتكلم الإنجليزية ومن يرتبط بها في أكثر بقاع العالم دون أن توحدهم وحدة تامة بأية وسيلة لتتخذ منهم خميرة لوحدة أو شبه وحدة بين بني البشر . وقد خابت مساعي توحيدهم عن طريق السلم ، إذ عز على الإنجليز المحافظين أن ينزلوا عن كثير من تقاليد امبراطوريتهم العظيمة ، وعن حقوق الغلبة والفتح فيها ، وكانوا أولى الناس باتباع ذلك بعد أن خرجوا من الحرب الماضية منصورين . وإذ عز كذلك على الأمريكان الأحرار أن يسيروا مع الإنجليز في نظرياتهم المحافظة فيرتدوا عن مبادئ عالمهم الجديد وثوراتهم العظيمة التي قضوا بها على تمائر الأحقاد ومواريث التاريخ السيء في القارات القديمة ، فعاشوا حياة جديدة في أرض جديدة ...

فكانت هذه الحرب الحالية ردًّا سريعًا من الأقدار وعقابًا للأمم الناطقة بالإنجليزية لأنها أهملت وتوانت في السعي المشترك المسلح لإقامة عالم أسعد وأعدل ، وكانت وحدها — ولا تزال — هي التي تستطيع أن تنهض بأعباء ذلك العالم المنشود

ولم أكد أفرغ من كتابة هذا المعنى حتى ساقت لي الأقدار دليلاً يؤيده من أقوال أحد أساطين الأمريكيين وهو المستر « وندل ويلكي » منافس « روزفلت » في الانتخابات السابقة ... قال كما ورد في « أهرام » ١٤ / ١ / ١٩٤٢ : « إننا جميعاً نلوم هتلر وحده ، بيد أن هذه الفكرة السطحية ليست صحيحة . فاللوم لا يقع على هتلر وحده بل ينصب علينا إلى حد ما . فلقد سمحنا في الماضي لإنتاجنا الصناعي العظيم أن يتحكم فينا وأن يتغلب على مثلنا العليا ... »

أجل ، هذا هو موضع الداء ، وضع « ويلكي » أصبعه عليه ... فإن أمريكا كان يجب أن يكون موقفها بعد الحرب الماضية موقف « بوليس » العالم بعد أن كان انضمامها للحلفاء في تلك الحرب أعظم مرجح لكفتهم ، وبعد أن تلقى المعسكران المتحاربان مبادئ الرئيس « ويلسن » الأربعة عشر باللهفة والقبول والاستبشار . وكان فيها المثل الأعلى المنشود ، وكان شرف أمريكا يقضي عليها أن تقوم على تنفيذ تلك المبادئ التي قدمها رئيسها باسمها ، وأن تعلن حرباً على من يخالفها حتى يفيء إلى أمرها

ولكن ما شغل به العالم بعد الحرب من التهافت على المتاع المادي للتعويض عما أصابه من آلامها ، وما رأته أمريكا من عودة ذوي النزعات المحافظة إلى أساليبهم القديمة في مزاولة السياسة الدولية ، وما قضت به مساعي الرأسماليين والاستعماريين الأنانيين من بقاء العالم في أدوائه القديمة ... كل هذا ثبط من عزيمة أمريكا وجعلها تترك العالم القديم في شقائه وتقنع هي بعزلتها السعيدة

ولكن ها هي ذي يد الأقدار تمتد لتنتزعها من هناء عزلتها وتحشرها مع بني عمومتها وتدفعها معهم في هذه الحرب الزبون رجالها وأموالها وقضها وقضيضها ... وما أظنها ستنسى واجبها مرة ثانية حين يعود السلام . ومن هنا ينبعث نور الأمل ، لأن أمريكا عمل عظيم في طريق أمل أعظم !

***

وبعد ، فإن ذكرى هجرة الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن تبعث في قلوب المسلمين روح الاستعداد لانتقال عظيم يجب أن يقدموا عليه بعد هذه الحرب للوقوف في صفوف الأمم التي ستشترك في إقامة الحياة العادلة السعيدة التي تخدم أهداف الإنسانية جميعاً . وإنهم لجديرون أن يقدموا للعالم أعظم المبادئ التي تقوم عليها السلامة الإجماعية والمساواة الفردية والدولية التي تنشدها الأمم وتنادي بها في كفاحها

فليهاجروا إلى حياة الحق والعدالة التي في دينهم بأرواحهم وأفكارهم حتى يكونوا نماذج مجسمة لما سيقدمونه للعالم بعد الحرب من مبادئ وحلول للعقد والمشكلات

وليعلموا أن هذا هو أوان التبشير والدعوة إلى مبادئ دينهم العالمي الذي قام على أصول أديان الحق التي ارتضتها البشرية في المشرق والمغرب ...

« ولقد كتبنا في الزَّبُور من بعد الذكر أن الأرضَ يرثها عباديَ الصالحون »

عبد المنعم محمد خلاف

حكمت محكمة المنصورة العسكرية في الجنحة ن ٤٠٣ سنة ٩٤١ بحبس زينب المرسي حسن من سندوب شهراً بالشغل لبيعها قمحاً بسعر زائد عن المحدد

من وحي النبي

معجزة العنكبوت

للأستاذ محمود حسن إسماعيل



[مشهد غنائي تنبع موسيقاه من الغار الذي أوى إليه النبي العربي الخالد مع صفيه « الصديق » في جبل « ثور » خوفاً من أذى المشركين الذين اقتفوا أثر « المصطفى » في طريقه إلى المدينة يوم الهجرة] .

(أبطال المشهد : العنكبوت ، الحمامتان ، الثعبان)

العنكبوت يغني (وهو ينسج خيوطه بعد أن دخل النبي وصديقه الغار) :

فِي سَبِيلِ اللهِ دُورِي   يَا خُيُوطِي فِي الأَثِيرِ
أَنَا نَسَّاجُ الحُصُونِ الشُّـمِّ   مِنْ أَوْهَى السُّتُورِ
وَقَفَ الدَّهْرُ عَلَى بَا   بِيَ مَذْعُورَ الضَّمِيرِ
وَحِجَابُ الشَّمْسِ لاَ قَا   نِي بِأَجْفَانِ الضَّرِيرِ
وَالضُّحَى خَرَّ كَلَيْلٍ   فَوْقَ أَعْتَابِي أَسِيرِ
أَنَا شَكٌّ جَاءَ يَحْمِي   كُلَّ إِيمَانِ الدُّهُورِ
أَرْسَلَتْنِي قُدْرَةُ اللَّـهِ   أَمَانَ المُسْتَجِيرِ !
قَدْ وَهَى بَيْتِي ... وَلَكِنْ   صَارَ مِحْرَابَ العُصُورِ
بِالَّذِي أُخْفِي مِنَ الأَنْـوَارِ   فِي وَجْهِ البَشِيرِ ...
فَارْفَعِي يَا حِكْمَتِي سَدًّا   عَلَى بَطْشِ المُغِيرِ
وَتَغَنَّيْ يَا خُيُوطِي   ثُمَّ دُورِي ! ثُمَّ دُورِي !

الحمامة الأولى (وقد وجدتا نفسيهما فجأة على باب الغار يقفان ويسمعان نشيد العنكبوت) :

أُخْتَاهُ ! مَاذَا دَهَانَا   فَلَمْ نَعُدْ فِي حِمَانَا ؟ !
مَاذَا ؟ ! رِمَالٌ ، وَنُورٌ   وَعَنْكَبُوتٌ شَجَانَا ...
وَالبِيدُ قَلْبٌ تَرَامَى   عَلَى الثَّرَى حَيْرَانَا
وَسَامِعٌ ، وَمُنَادٍ   وَأَعْيُنٌ لاَ تَرَانَا
وَضَجَّةٌ فِي الفَيَافِي   حَسِبْتُهَا بُرْكَانَا
لَعَلَّ رِيحًا عَتِيًّا   عَلَى الصُّخُورِ رَمَانَا
فَضَلَّلَتْنَا خُطَانَا   وَأَوْحَشَتْنَا رُبَانَا
أُخْتَاهُ ! مَاذَا ؟ ...

الحمامة الثانية :

... ... رُوَيْدًا   فَقَدْ ضَلَلْتِ البَيَانَا
فَمَا تَرَكْنَا رُبَانَا   لَكِنْ هَجَرْنَا الزَّمَانَا
لِذَلِكَ الغَارِ جِئْنَا   نُلْقِي عَلَيْهِ الأَمَانَا
فَفِيهِ هَالَةُ نُورٍ   تُفَجِّرُ الإِيمَانَا
طَافَتْ بِمَكَّةَ حِينًا   فَدَكَّتِ الطُّغْيَانَا
وَلاَحَ مِنْهَا شُعَاعٌ   يُكَبْكِبُ الأَوْثَانَا
فَالمُشْرِكُونَ لَدَيْهَا   مُسَهَّمُونَ حَزَانَى
خَرُّوا سُجُودًا ، وَأَرْخَوْا   لِصَفْحَتَيْهَا العِنَانَا !
إِلاَّ بَقَايَا ضَلاَلٍ   تُسَاوِرُ العُمْيَانَا
سَاقَتْ إِلَى النُّورِ جَيْشًا   مُفَزَّعًا ، غَضْبَانَا

فهاجرَ النورُ حتّى ألقى العصا في حِمانا
ضيفٌ! وكلُّ البرايا في حبِّه تتفانى...
فالعنكبوتُ يُغنِّي وينسجُ النِّسيانا
ونحنُ نُلقي نشيدًا نُشجي به الأكوانا
ونسحرُ الجيشَ حتّى يفرَّ حينَ يرانا
هيّا نُغنِّي...

الحمامة الأولى:

... وهيّا نُرقِّصُ العيدانا...

تغنيانه معاً:

نحنُ بأرضِ العربِ حارستانِ للنَّبي
من وحيِه، وطُهرِه ونورِه المُحجَّبِ
نُذيعُ للدُّنيا صدًى بمثلِه لم تطربِ...

* * *

نحنُ لمبعوثِ السَّما أقدسُ طيرٍ رنَّما
غريبتانِ حلَّقتا أطهرَ وادٍ في الحِمى
فغنَّتا لدينِه لحنًا يُذيبُ الصُّمَّا...

الثعبان (خاشعاً مطرقاً بين يدى المصطفى بعد أن لدغ الصديق):

نبيَّ الله... يا هادي ويا ترنيمةَ الحادي
ويا تسبيحةَ الكثبا نِ، والرُّكبانِ في الوادي
ويا توبةَ آثامِ اللّـيالي... تابَ إنشادي
وجئتُكَ خاشعًا... ماتتْ نوافثُ سُمِّيَ العادي
وصاحَ بقلبيَ الغُفرا نُ صيحةَ مُغرقٍ صادِ
أغثْ لهفي! وطهِّرْ نا رَ تسبيحي وأورادي
لدغتُ صفيَّكَ «الصِّدّ يقَ» حينَ هفا لإبعادي
وخفتُ أذوقُ حرمانَ السَّنا من طيفِكَ الهادي

[«سراقة» يمر على الغار ممتطياً جواده متقصياً أثر النبي ... فضلله بيت العنكبوت وطمأنينة الحمام ... فأعرض عن باب الغار وعاد خائباً ... !]

(لها بقية) **محمود حسن اسماعيل**

العام الهجري

عبرة العبر

للأستاذ عبد العزيز البشري



هذه الشمس تطالع العالم بجفنيها من جانب الأفق. وما تلبث أن تتسلل منه رويداً رويداً، حتى يستوى إطارها على متنه. وماتزال فى خلال ذلك تضاعف ما توسل على وجه الأرض من خيوطها العسجدية. وكذلك ما تزال تطيل فيها وتبسطها من الشرق إلى الغرب. وهكذا تظل تحبو فى مدرجها إلى قبة الفلك. وكلما خطت بالزمن خطوة، رأيتها تشتد وتترعرع، ويسطع ضوؤها، ويحمى وجهها إلى أن تبلغ الندوة، وتستوى على أعلى الأوج.

وأنت خبير بأنه ليس بعد الصعود إلا الهبوط، فهذه سنة الله تعالى فى كونه؛ وكذلك تجرى سنته على هذا الكائن العظيم؛ فليس بعجيب أن يدعو الفلكيون هذه اللحظة، أعنى لحظة استواء الشمس فى أعلى الأوج بالزوال، إذ كان بدء الزوال، هو غاية الكمال!

وهذه الشمس تمشى إلى الغرب فى منحدرها كذلك رويداً رويداً، كما تتداخلها الشيخوخة فالهرم رويداً رويدا؛ حتى إذا اصفر لونها، وبردت السن من جرمها، جعلت تتدلى فى قبرها من مغرب الأفق مستهلة مستأنية؛ وهكذا تغيب فى لحدها، غير تاركة من التراث إلا صُبابة من الذهب المذاب، سرعان ما تتبخر فى حلك الظلام. وقد تترك تراثها الفضى على صفحة القمر، يرفد العالم به بعض ليالى الشهر.

تلك سيرة الشمس كل يوم: ميلاد فترعرع ففتوة، فشباب وفراهة وقوة، وكهولة فشيخوخة فهرم، فتدس فى النهاية تحت الرجم. وسبحان الحى الذى لا يموت!

على أنها فى جميع مراحل حياتها عاملة جادة جاهدة، لا تنى عن السعى لحظة واحدة. فها هى ذه تستنبت الأرض، وتزكى الزرع، وتبسق الشجر، وتنضج الثمر، وتفتح من أكمامه الزهر. ثم ها هى تى، فى عنفوانها، ما تفتأ تجتذب البخار، عذباً سائغاً من أجاج البحار[1]؛ حتى إذا انعقد سحاباً، سح فأخضل قفراً وأعشب يباباً. وهذه الأنهار الجارية تموتها فى أقطار الأرض، تبعث أسباب الحياة لكل متهيئ للحياة. وكذلك لا ننس أنها ما تبرح تعمل عامة النهار، فى تطهير الأرض مما يعلق بجسدها من الأخباث والأوضار.

فأى عنصر، لعمرى، من حياة هذا العالم يمكن أن يغنى عن الشمس؟ ألا إنها لمصدر الحياة جميعاً؛ فحق للعالم أن يقول: إنما الحياة الشمس، وإنما الشمس الحياة!

* * *

أيتها الشمس! ما أحسنك وأجلك، وما أطيبك وأكرمك! تعملين لأول الدهر إلى غاية الدهر، فى غير ونى ولا سأم، ولا ضجر ولا برم، ولا صلف ولا استعلاء، ولا زهو ولا كبرياء. ولو شاء الله لأهلك بحرك بعض الأقوام، ولو قد شاء لأهلك بطول حجبك جميع الأنام!

* * *

وبعد، فما أخلق الذين يمسهم حظ من المجد فى هذه الدنيا،

---

(١) كان المعرى، رحمة الله عليه، لا يؤمن بهذه القضية: (اشتقاق العذب من أمواه البحار)، إذ تراه يقول فى بعض شعره:

وقد يجتدى فضل الغمام وإنما من البحر، فيما يزعم الناس، يجتدى

كما يقول فى بعض رسائله: (أو كالهواء، فى مذهب لا أعتقده، وقول سواى من يسدده، يجتذب أجزاء البحار، فيستق من تحته عذب الأمطار)!

والذين يمسون صدراً من السلطان فيها أن يتثبتوا لسيرهم من سيرة هذه الشمس أعلى المثل . فيعملوا كل فى محيطه للنفع العام فى جد ودأب ، مؤمنين كل الإيمان أن الموهبة والسلطان إنما ينبغى أن يكونا ملكا خالصاً للمجموع لا لأحد من الناس ولا لشىء من الأشياء .

على أن مما يفجع حقاً أن كثرة من هؤلاء الذين ينالون مجداً ويولون سلطاناً سواء أكان أقام من ثم لهم هذا فى جماعة أم فى شعب أم فى شعوب — سرعان ما ينسون كل شىء لأن الأثرة قد ملكت من نفوسهم كل شىء . فنفوسهم هى المبدأ ، ونفوسهم هى الغاية . حتى إذا أجالوا الفكر فى منافع الجماعات ، فلا لأنهم يؤثرون لهذه الجماعات نفعاً أو يبتغون لها خيراً ، بل لأنهم إنما يطلبون من هذا السعى مراماً لأنفسهم لا لشىء آخر ، وقد يكون هذا المرام ، فى أعف الصور هو إحراز المجد . أما ما يقع من خير المجموع ، أو ما يحتمل أن يقع ، فليس أكثر من طريق !

وكيفما كان الأمر ، فإنه ما يكاد أحد هؤلاء يحس مجده ويستشعر سلطانه ، حتى يَوْرم أنفه ، ويتداخله من الصلف والمخيلة ما يملؤه اعتقاداً بأن الرأى فى الأمر ليس إلا ما يرى هو ، وأن ما سواه لا صلاح له ولا خير فيه ، بل لقد يكون كله شراً وفساداً .

ولقد يشتدّ طغيان هذه الخلّة على المرء ، فيرى أن الناس لا ينبغى أن ينظروا إلا بعينه ، ولا يسمعوا إلا بأذنه ، بل إنه ليرى أن من العبث الضار أن يجري فكرهم بغير ما يجرى به فكره ، وأن تنتهى آراؤهم على غير ما ينتهى إليه رأيه . فإذا خالفه امرؤ إلى غير هذا ، كان بين اثنين : إما بلتاث ممخرق ، وإما معاند مكابر يجب أن يعجل له سوء العذاب !

وفى الحق أن أكثر من يغمرهم هذا الطغيان ، إنما يرون ما يرون ويفعلون ما يفعلون ، عن ثبات إيمان ورسوخ اعتقاد !

وما ظنك بمن تطبعهم شدة الأثرة على الإيمان بأنهم مبعوثون من لدن رب السموات لإصلاح ما فسد فى رقعة من الأرض أو فى رقاع الأرض جميعاً ؟ فإليهم وحدهم عهد الله بالاضطلاع بهذا المهم . وعليهم وحدهم تقع تبعة التقصير فى علاجه ، والراضى فى إمضائه وإكماله !

وهؤلاء لا يطلبون الأعوان والأنصار ليعاونوهم بصادق الرأى وصالح المشورة ؛ ولكن ليعاونوهم بقوة المظهر وإمضاء ما قضى به الوحى الذى لا يخطئ أبداً !

فإذا تعاظمك ما يختلف على هذه الأرض من عصور العتوّ والطغيان : تخرب العامر ، وتدمّر القائم ، وتُقفر الآهل ، وتراق فيها الدماء بغير حساب ، وتزهق النفوس لغير سبب من الأسباب : إذا تعاظمك هذا فى عصور الدهر المتتابعة ، فاعلم أن علته تلك الخلّة الفاجرة فى الإنسان !

* * *

وأمس ، لقد أتمّت دورةُ الشمس حولاً سلكته فى عقد التاريخ أيضاً ، وآذنت العالم بفجر حول جديد

وإن ذاك العام المدبر ، وهذا العام المقبل ، لهما — كما تعلم — من أعوام الهجرة ، هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة ، وقد ساد بها الإسلام ، فسعد بسلطانه الأنام

وبعد ، فلست بحاجة إلى أن أحدثك عما كان قد غشى الأرض جميعاً من ظلم وفساد ، وتصدّع فى النفوس وتضعضع فى الأخلاق ، حتى كاد يُقضى على الأمم بعدم الصلاحية للبقاء . إلى أن بُعث محمد من عند الله حقاً ، فبلّغ رسالته إلى الناس ، كما أوحى إليه بها ربه حقاً ، فكان ما شهد التاريخ من ذلك الفتح والإصلاح والإسعاد

ولا أحب أن أطيل فى وصف ذلك الإصلاح والإسعاد ، فبحسبهما أن تنزّل بآياتهما وحىٌ كريم ، من عند الله العلىّ العظيم

وإنما أقف وقفةً قصيرةً عند سيرة من خلفوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤيّد أحدٌ منهم بوحى سماوى ، ولا حُبى بالعصمة التى حُبى بها الأنبياء ، إنما هم أناسيٌّ مثل سائر الناس .

وإذا كان خلفاء الرسول قد ارتفعوا على سائر الناس ، فبأنهم إنما ساروا سيرة هذه الشمس التى تطالعهم كلّ صباح وتغرب عنهم كلّ مساء . على أنها هى إنما تعمل لعالم الأجساد والأجرام ،

أما هم فيعملون لعالم النفوس والأرواح .

يعملون جادّين جاهدين ، لا يبتغون من سعيهم نفعاً ، ولا يُريغون من ورائه فخراً ولا ذكراً ، لأنهم أشد أمانة من أن يقتطعوا لأنفسهم أو لذويهم شيئاً مما ينبغى أن يجرّد كله للنفع العام .

يعملون لا مستبدّين بالرأى ولا مستأثرين ؛ بل مشاورين مصغين مسرعين ، حتى إذا اتسق لهم الرأى الذى يرون فيه منفعة المجموع ، أسرعوا إلى إمضائه ولو جاء من أصغر الجميع .

أما رأى الجماعة ، فشرعٌ عندهم مشروع ، وقضاءٌ مبرَمٌ محتوم .

يعملون صادقين مخلصين لله وللنفع العام .

لا كبر ولا مخيلة ولا استئثار بمنفعة من المنصب والجاه ، بل ليس عندهم إلا الإيثار والتواضع ، والرقة للضعفاء . وهيهات أن يؤثروا أحداً على أحد إلا بطاعة الله وما قدم من الخير للمجموع .

ولعمرى ، لتلك أعلى صور الديمقراطية التى يحلم بها أجلّ الفلاسفة من قديم الزمان

وإذا كان هؤلاء الخلفاء قد انعقد لهم أعظم المجد ، المجد الخالد على الدهر ، فلأنهم لم يريغوه ولم يسعوا له ، ولم يشغل هو جزءاً من نفوسهم جليلاً ولا دقيقاً !

* * *

وبعد ، فلا شك أن مما أصفاهم لطلب النفع العام ، وتجافى بهم عن الاستئثار حتى بالنفع الخاص ، هو طول الذكر للموت . وكيف لهم بنسيانه ، وهذه الشمس العظيمة ، باعثة الحياة والحركة فى العالم تموت كل يوم ، بمرأى منهم ، بعد أقوى الحياة ، ولكل شئ نهاية ، ولكل سائلة قرار !

وإذا كانت الشمس تعود كل يوم فتُوالى سعيها فى النفع والتجديد والإحياء ، فإنّ زعيما لن يعود بعد موته ، ولو لإصلاح ما عسى أن يكون قد أفسد وتعمير ما عسى أن يكون قد خرّب .

فما له ، بعد الموت بالأمر يدان !

هذا بعض ما يلهمه حديث الهجرة ، وإن فيه لعبرة .

عبد العزيز البشرى

بطولة محمد

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني



لا أعرف ولا أحسب أن غيري يعرف ما يشبه — أو يقارب — بطولة محمد صلى الله عليه وسلم . ولست أنسى أني مسلم ولكني مسلم بالعقل قبل أن أكون مسلماً بالوراثة والنشأة . ولست أخشى أن أتهم بالتعصب لصاحب هذا الدين . على أني لا أعني بالبطولة الشجاعة في الحرب ، والجرأة في الكر والفر ، والإقدام على مقارعة أحلاس القتال ومنازلة الأعداء في حومات الوغى ، فما كان صلى الله عليه وسلم يعنى بالاشتراك في القتال بسيف أو رمح ؛ وكان يشهد المعارك ويصحب رجاله ولكنه لا ينزل إلى الحومة بنفسه ولا يخوض المعمعة مع أنصاره وإن كان يوجههم . وما كانت مزيته أنه أطعن الناس برمح ، أو أسدهم ساعداً ، وإنما كان نبياً وصاحب دعوة ، ورسولاً بدين ، ومعلماً ومرشداً وهادياً ، وحسب من شاء أن يقدر بطولة محمد أن يتأمل حياته وسيرته لا في مكة وحدها بل بعد الهجرة منها إلى المدينة أيضاً وإلى آخر حياته ، فقد جاء بدين ينقض كل ما قامت عليه حياة العرب في زمانه من عقائد وتقاليد وعادات وآراء ؛ ولا يُرضى حتى أهله ، لأنه يحرمهم مزاياهم وما كانوا ينعمون به من عزة في الجاهلية ؛ ولم يجد من يؤمن به وبرسالته إلا قلة لا غناء لها ، ولقي من الضيم والعذاب والأذى والمطاردة والاضطهاد ، ما لم نعهد في البشر إطاقته والصبر عليه ؛ وحوصر في الشعب ثلاث سنين بلا أمل أو نصير ؛ وقاسى من المحن أقسى ما يخطر على البال ؛ ومع ذلك لم يلن ولم يضعف ، ولم يكد يخرج من هذا الشّعب حتى مضى وحده وبمفرده إلى الطائف يدعو إلى ترك الأوثان وإلى عبادة الواحد الأحد ، فلم يقابَل بغير الإهانة والزراية من الكبراء ، والرمي بالحجارة من الصبية والجهال ، حتى سال منه الدم فعاد إلى مكة لا يائساً بل مواصلاً بث دعوته وتبليغ رسالته ، وظل صابراً مواظباً محتملاً ما يلقى في سبيل الله من الأذى البليغ والعنت الشديد ثلاثة عشر عاماً من يوم تلقى الوحي . ولما اعتزم الهجرة بعد أن مهد لها لم يخرج إلا بعد أن رحل عن مكة معظم أنصاره وأمن واطمأن عليهم ، ووثق بنجاتهم وسلامتهم ، وهذا ثبات كان خليقاً وحده أن يقنع الذين كتبوا عنه من الأجانب بأنه لا يمكن ولا يعقل أن يكون من « دجال » كما وصفه بعضهم

وقد كتب « واشنطون إرفنج » عن بواعث محمد يقول : « أكانت الثروة ؟ لقد أفاده زواجه من خديجة الغنى ، فظل سنوات قبل الوحي لا يبدي رغبة في زيادة ثروته . أم كان يطلب المنازل الملحوظة ؟ لقد كانت منزلته عالية في قومه ، وكان معروفاً بينهم بالفضل والأمانة ، وكان من قريش ومن أكرم فرع فيها ، وكانت سدانة الكعبة وما تفيده من العز والسلطان في أسرته منذ أجيال ، وكان من حقه أن يتطلع إليها ، فلما قام يحاول أن يهدم الدين الذي نشأ عليه قومه اقتلع جذور هذه المزايا جميعاً ، فقد كانت ثروة أهله ومنزلتهم قائمتين على هذا الدين فهاجمه وجر على نفسه عداوة أهله وغضب مواطنيه وسخطهم جميعاً

ويمضي إرفنج في تقصيه فيسأل : هل كان هناك في بداية سيرته النبوية ما يبعث الأمل أو يعوّض هذه التضحيات ؟ ويرد على ذلك فيقول : إن الأمر كان على النقيض ، فقد بدأ محاذراً متوخياً الكتمان وظل سنوات غير موفق ؛ وعلى قدر توسعه في بث دعوته ، وإذاعة رسالته ، كان يشتد ويعظم ما يلقى من العنت والسخريّة والأذى والاضطهاد ، واضطرّ بعض أهله

وأنصاره أن يفروا إلى بلاد أخرى ، واحتاج هو نفسه آخر الأمر أن يهاجر إلى بلد غير مكة ، فلماذا كان يصبر كل هذه السنوات الطويلات على «دجّال» يسلبه كل متاع الدنيا فى سن لا تسمح بأن يبدأ المرء حياته مرة أخرى ؟ فما قام بالدعوة إلا بعد الأربعين وقضى فى مكة ثلاثة عشر عاماً ، وكان تاجراً حسن الحال فهاجر منها فقيراً معدماً ، لا يعرف ما كتب الله له فى غيبه من النصر ، ولا يبنى أكثر من أن يبنى مسجداً يعبد فيه ربه ، ولا يرجو إلا أن يعبد الله فى سلام . ولما جاءه النصر لم يتكبر ، ولم يتجبر ، ولم يغتر ، كما يفعل الذين ينشدون المآرب الشخصية والغايات الخاصة ، فحافظ ، وهو فى أوج قوته ، على بساطته أيام ضعفه

وقد جاءه نصر الله بعد الهجرة ، ولكن الأيام لم تجر كلها بالسعود فى المدينة ؛ وإذا كان قد انتصر كثيراً فقد انهزم أحياناً ، فلا النصر أبطره ، ولا الهزيمة أضعفت روحه أو فتت فى عضده .

ولعل القدرة على احتمال النصر أدل على العظمة من القدرة على احتمال الخيبة ؛ ولكنه لم يكن من الهين على من احتمل مثله ثلاثة عشر عاماً من المتاعب أن يصبر على هزيمة جديدة ...

وكان عليه أن يضع للجماعة الإسلامية فى المدينة النواميس والنظم فى السلم والحرب . وهو فيما أعلم الوحيد الذى بلّغ الرسالة كلها ، وأتم عمله أجمعه فى حياته ، فأكمل الدين ، وأسس الدولة ، ووضع القواعد كلها ، ووجه الأمة الجديدة الوجهة التى فيها الخير والصلاح والعز . وليس لهذا مثيل فى التاريخ — قديمه وحديثه — . وهنا ينبغى أن نذكر أن مسافة الزمن التى تم فيها كل هذا كانت قصيرة جداً ، وأن دينه كان جديداً ، يخالف كل ما وجد عليه العرب . وفى هذه المدة الوجيزة لم يغير للعرب عباداتهم وحدها ، بل غير نفوسهم أيضاً . ولا شك أن صرف امرئ عن عبادة حجر أو نحوه أهون جداً من صب النفس فى قالب جديد . وقد خلق من هؤلاء العرب المتنافرين المتعادين المتهالكين رجالاً يعدون فى طليعة أبطال العالم . وماذا كان هؤلاء جميعاً خليقين أن يكونوا لولا محمد ؟ ونعنى بهم أبطال التاريخ الإسلامى من مثل الخلفاء والولاة والقواد والفقهاء ... أكان أحد يمكن أن يسمع بهم ؟ ؟ لا أظن ! ولا شك أنهم كانوا خلقاء أن يكونوا شيئاً مذكوراً بين قومهم ، ولكن قومهم أجمعين لم يكونوا شيئاً . وما قيمة قوم انقسموا قبائل متعادية لا أثر لها فى الحياة ، ولا يعبأ بها حتى من يجاورها من الأمم ؟ ومن هذه العناصر خلق محمد أمة عظيمة فتحت الدنيا ، ونشرت الدين ، وأهدت إلى العالم حضارة كبيرة غيرت مجرى التاريخ الإنسانى كله

ولا يتسع المقام للافاضة فى هذه المعانى ، ومن أجل هذا أكتفى بأن أقول إن محمداً أعظم عظيم خلقه الله . وأزيد على هذا أنى كنت فى صدر حياتى أستهجن قول من يقول إن العرب خير الأمم وأفضلها ، وأرى ذلك من الغرور ، ولكنى الآن صرت أعذر من يقول هذا . ولست مغرى بالمفاضلة بين الأمم ولا أنا أرى داعياً لهذا ، فإن كل أمة تؤدى فى الحياة رسالتها على قدر طاقتها ، ولكن أمة تنجب محمداً ، هل يلام من يقول إنها أعظم الأمم ؟

ابرهيم عبد القادر المازنى

حكمت محكمة المنصورة العسكرية فى القضية رقم ٩ سنة ١٩٤٢ بحبس عبد المطلب عامر من كفر عوض شهر بالشغل والنشر على نفقته لبيعه بترولا بسعر يزيد عن التسعيرة .

في الطريق إلى قرطبة

للأستاذ محمود تيمور



[عندما استتب الأمر لأبي العباس السفاح أول خلفاء العباسيين هرب الأمير عبد الرحمن الأموي من العراق ووجهته الأندلس ليتسنم عرش الامارة فيها بمعاونة أنصاره الأمويين . فبينا كان في شمال أفريقيا وقعت له هذه الحادثة التي نرويها]

كان القمر ينشر نوره الفضي على قرية « مغيلة » في مراكش ، فتبدو الدور على ضوئه الهادئ كأنها تتمطى مبتسمة رافعة هاماتها إلى السماء تنفض عنها فتور النوم . في تلك الساعة التي بدأت فيها القرية تتنفس كان يسير في طريق من طرقاتها المهجورة رجل طويل القامة نحيف الجسم ملتف بعباءة دكناء ووجهه ملثم . كان يسير سيراً حثيثاً في مشية حذرة ، متجنباً الأماكن التي انجلت عنها غبشة الليل ، تدل مظاهره التي يجتهد في إخفائها على الامارة والجاه . ولما دنا من دار « وانسوس » رئيس أقوى قبائل البربر في تلك الجهة توقف عن السير والتفت حوله ثم دفع الباب في سكون ودخل ، ثم أحكم إغلاقه خلفه ، وما إن خطا بضع خطوات ، حتى تقدم إليه «وانسوس» في خضوع وقال في صوت خافت :

— مولاي الأمير

— كدت أضل الطريق

وبدأ الزائر يرفع لثامه ويحل عباءته ، فظهر عارضاه الخفيفان وبانت ضفيرتاه على ظهره ، وسار بخطوات رزينة وخلفه « وانسوس » ؛ وقال :

— هل أحضر « بدر » الجواهر ؟

— أحضرها يا مولاي وهي وديعة عندي لا تستطيع أن تمتد إليها يد إنسان .

— وماذا قال لك ؟

— إن أختك « أم الأصبع » تقرئك السلام وتقول لك إنها سترسل لك غيرها

— بورك فيها . . وماذا بعد ذلك يا « وانسوس » ؟

— إن وهب بن الأصفر وشاكر بن أبي الأسعط يستحثانك على السفر ، إن المركب معد وهم في انتظارك

وكانا قد بلغا بهواً تتوسطه نافورة وقد نثرت بجوار حيطانه وسائد عريضة ؛ فوقف الأمير أمام النافورة يتأمل المياه ويداه مثنيتان على صدره وقال :

— وأهل الأندلس ؟

— يرحبون بتقدمك لتنقذهم من أميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري . هناك أبناء عمومتك يا مولاي ومعهم أنصارهم الأقوياء، ثم لا تنس القبائل اليمنية

— هذه حطمتها قوات الفهري

— بل ما زالت محتفظة برجالها الأقوياء

— إن الحروب الأهلية يا «وانسوس» قد نهكت الأندلس، وعمها القحط وجلا كثير من أهلها عنها ، فإذا أردنا أن نستعجل النصر فلنعتمد على الذهب نكسب به الأنصار

ودخلت في تلك اللحظة « تكفات » زوجة « وانسوس » وكانت امرأة بدينة تلبس إزاراً واسعاً ، دخلت في عجلة واضطراب وهي مكفهرة الوجه وقالت :

— بينما كنت على السطح في مكاني المخصص للمراقبة أبصرت رهطاً من الرجال مقبلين في سرعة وتلصص نحو الدار ، فاشككت أنهم من رجال ابن حبيب

فتغضن وجه الأمير وقال بصوت أجش :

— لقد وشى بي الواشون

وهرع وانسوس إلى البرج ليستطلع الخبر ثم عاد مضطرباً وهو يقول :

— عجل يا مولاي بالهرب

وجرى الإثنان نحو البرج ، ولكن ما كادا يطلان منه حتى عادا أدراجهما والأمير يتمتم :

— لقد أحاطوا بالدار

وسمعت فى هذه اللحظة جلبة عالية فى الخارج فيها وعيد وتهديد وطرح الأمير عبد الرحمن عباءته واستل سيفه ووقف وقفة الجبار ناظراً إلى باب البهو وقد انطبع على محياه المهيب عزم رهيب وقال :

— إنى لأشعر بأرواح بنى أمية كلها قد تقمصت جسدى فليأت ابن حبيب وجيشه وليجرب حظه معى

واشتدت الجلبة وسمع قرع قوى على الباب وأصوات تقول :

— افتحوا . . .

وقال الأمير لوانسوس :

— إذهب وافتح الباب

ووقف وانسوس متردداً

وتكرر القرع بحماس شديد . وسمع الباب يهتز ويتفلق والأصوات تتعالى فى سحط مرددة :

افتحوا . افتحوا . . .

فقال الأمير وهو ينظر إلى وانسوس نظراً حاداً :

— لقد أمرتك أن تفتح الباب

فقال وانسوس فى ذلة ويأس :

— الأمر لك يا مولاى

وذهب قاصداً الباب . وما كاد يخرج حتى أشرق وجه تكفات بغتة ولمت عيناها . وتقدمت فى جرأة غريبة نحو الأمير وقالت :

— إنها لحظة من لحظات الدهر الخالدة . فإما إلى العرش وإما إلى القبر ... تعال

***

وفتح وانسوس الباب فتدفق الرجال فى صحن الدار وضجتهم تسبقهم ، ووقف زعيمهم مكشراً أمام وانسوس وقال :

اقبضوا على هذا الخائن ...

وفى لحظة كان وانسوس مقيداً وملقى بجوار الحائط ؛ وأتم الزعيم أمره قائلاً :

— دونكم الدار فلا تتركوا مخبأ إلا دخلتموه ، أو ركناً إلا فتشتموه ، وإياكم ألا تعثروا عليه

فانتشر الرجال فى الدار يفتشون ، وسار الزعيم فى رهط من أنصاره قاصداً إلى بهو النافورة واختفى الجميع فيه

***

ومضى الوقت ووانسوس ملق بجوار الحائط يصغى بأذن مرهفة إلى ضجيج الرجال فى داخل داره وعيناه الحائرتان لا تفارقان باب البهو

وأخيراً فتح الباب وخرج منه الزعيم وخلفه رجاله . ولما دنا من وانسوس ألقى عليه نظرة احتقار ثم التفت إلى جماعة بالقرب منه وقال :

— حلوا وثاق هذا الرجل

ثم سار فى عجلة نحو الباب وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة وخرج والجميع فى أثره . وقام وانسوس وهو يفرك عينيه دهشا ، وبعد أن أحكم قفل الباب سار مهرولاً إلى بهو النافورة فوجد زوجته « تكفات » جالسة على إحدى الوسائد متكئة بظهرها على الحائط ؛ فما شك وانسوس أن قواها خارت من الخوف . فأقبل عليها وسألها قائلاً :

— أين الأمير ؟

وفى لحظة كشفت إزارها الواسع فخرج من بينه الأمير ؛ وما إن توسط البهو حتى قال :

— تالله إن عرش الأندلس لدين «لتكفات» بهذه الحيلة . لن أنسى لك هذا الجميل يا « تكفات »

فانحنت المرأة أمامه فى خضوع

ووقف الأمير عبدالرحمن أمام النافورة ويداه مثنيتان إلى صدره ، وقال وقد سطع على وجهه العزم واليقين فى صوت ممتلىء قوى :

لقد بت أعتقد أن العناية تساعدنى . فهناك على شاطىء الفرات حيث كانت فرسان أبى العباس تلاحقنى أنا وأخى نجوت بأعجوبة لم أكن أحلم بها فى حين أن أخى قد عاكسه القدر فقبض عليه وقتل على مرأى منى . وهنا تمر بى رجال أبى حبيب وأنا على بعد خطوات منهم فلا يخامرهم شك فى أنى غير موجود

وأرسلت عيناه وميضاً عجيباً ، والتفت حوله وهو رافع الرأس كأسد منتصر على فريسته وقال :

— إيه أيها القدر ! تعصمنى والعباسيون يتهالكون على الفتك بى ، يطاردوننى فى كل شبر من الأرض ... إنى لأرى الأندلس تدنو منى كما يدنو مقبض هذا السيف من يمينى

محمود تيمور

حكم فى الجنحة المستأنفة رقم ٩٦٩٨ سنة ١٩٤٠ ضد محمد حسن عراقى بتغريمه ٥٠ قرشاً وتعمر الحكم بمجلة الرسالة والثقافة ليبيعه كبرياً أزيد من التسعيرة

الإسلام دين لا دولة

للدكتور زكي مبارك



أعترف بأني مُقبل على متاعب في تحرير هذا البحث ، لأني أكره أن يكون ضرباً من الحديث المُعاد، وما تريد « الرسالة » في مثل هذا العدد أن تعيد كلاماً فرغ منه الناس منذ أجيال .

وأعترف أيضاً بأني لا أجهل الفرق بين حياة الباحثين لهذا العهد وحياة من سبقوهم في سالف العهود ، فالمسلمون فيما سلف كانوا يقسمون الجمهور إلى قسمين : قسم العوامّ وقسم الخواصّ ؛ ولم يكن العاميّ هو الذي لا يقرأ ولا يكتب ، كما نقول اليوم ، وإنما كان العاميّ هو الذي لا يدرك من مرامي القرآن والحديث ما يستطيع به تعقّب أقوال الباحثين بالتعديل والتجريح ، ولهذا كان يتفق أن يسير في العصر الواحد آراء تختلف وتقتتل بدون أن يشعر أصحابها بأنهم مهدّدون بسوء القالة بين الناس ، إلا أن يكون في آرائهم ما يؤذي الخلفاء أو الملوك أو الوزراء ، وهؤلاء أيضاً كان لجبروتهم حدود ، لأنهم كانوا في الأغلب من أكابر الرجال ، وعلى علم بالزائف والصحيح من الآراء .

أما اليوم ، فمن حق من يقرأ ويكتب أن يعدّ نفسه من الخواصّ ، وأن يتعقّب الباحثين في الشئون الدينية كيف شاء ، ولو لم يتفق له الاطلاع على كتابٍ واحد من كتب الفقه والحديث

وأقول بعد هذا التمهيد : إني سأفترض قلمي باحثاً يقف من الإسلام موقف الحياد ؛ فقد مضى الزمن الذي كان يقال فيه : « ألهمّ إيماناً كإيمان العجائز » ؛ فذلك الإيمان لا ينفع في هذا الجيل ولم يبق له مكان . وأنا أعتقد أن الرجل الذي يكفر بعد اجتهاد الأقوياء ، أقرب إلى الله من الرجل الذي يؤمن بعد استسلام الضعفاء . وهل تهون العقول على واهب العقول ؟

وإنما يقف قلمي من الإسلام موقف الحياد ، لأني أريد أن يقوم هذا البحث على قواعد علمية لا خطابية ، فهو موجّه إلى قراء اللغة العربية ، وفيهم ألوف من غير المسلمين ، ومراعاتهم واجبٌ مفروض ، ومن الحتم أن يخاطَبوا بالعقل قبل الوجدان .

يضاف إلى هذا أن الإسلام كان في جميع أطواره ثورة عقلية ، فمن أراد من أبنائه أن يجرده من تلك المزية ، فهو عدوٌّ يلبس ثوب الصديق .

ثم أواجه الموضوع فأقول :

لكل دين من الأديان خصوصيات وعموميات : فالخصوصيات هي اللطائف التي يتعارف عليها أبناء الدين الواحد بعضهم مع بعض ، ولا يرضيهم أن تذاع لضعفها عن مقاومة النقد العنيف ؛ أما العموميات ، فهي الأصول التي يجوز نشرها بين جميع الناس ، لقدرتها على مواجهة التحامل بشجاعة وكبرياء .

والظاهر أن « الخصوصيات » هي الطور الأول من أطوار التدين ، فقد كان التدين في نشأته لوناً من الانحسار عن المجتمع ، وهو يوجب الانفراد والانزواء ، ومن هنا كانت كلمة « الدين » مرادفة لكلمة « السرّ » عند الأقدمين . ومن هنا أيضاً كانت « العزلة » من ضروب التعبد ، لأنها من فنون الاستخفاء ... ألم تسمعوا أن الصوم عن الكلام كان من العبادات في كثيرٍ من الديانات ، مع أن الكلام هو أساس التفاهم بين المتعاملين من الأحياء(١) ؟

والنفرة من الزواج عند قدماء المتدينين لها صلة وثيقة بهذا الغرض ، وقد أصابت الفطرةُ الشعبية في مصر حين سمّت الزواج « دخول الدنيا » ، وإنما كان ذلك لأن الزواج في العُرف القديم لم يكن يأتلف مع التأهب للفناء في الدين

ومن هذه النقطة يتشعب حديث اليوم

فالنبي محمد قد اقترن بتسع نساء ، وقيلت في تعليل هذه

(١) رأيت في « الدير المحرق » راهباً حبشياً صام عن الكلام ثلاثين عاماً ، وأظنه لا يفطر قبل أن يموت !

الظاهرة أقوال ، وأصح تلك الأقوال أنه أراد توكيد الصلات بينه وبين بعض القبائل والشعوب

ولكن يظهر أن من الممكن أن نلتمس تعليلاً غير ذلك التعليل ، كأن نفترض أنه أراد أن يقضي قضاء مبرماً على الوهم الذي يقول بأن التدين لا يأتلف مع الزواج ، وما كان ذلك « وهماً » من الأوهام ، وإنما كان « حقيقة » من الحقائق في صدور الأحبار والرهبان ، وإليهم كان الأمر في مصاير الناس من جهة الدين والأخلاق

ولكن محمداً كان يؤمن بأن من واجبه أن ينقل المفهومية الدينية مع وضع إلى وضع ، ولا يتم ذلك بغير ثورة على الترهب ، ثورة ماحقة ساحقة تنسف الرهبان إلى طوائف الخصيان ، وتصدهم عن الاستهزاء بالمؤمنين المتزوجين ، فكان له ما أراد

ومحمد بشهادة خصومه كان من نماذج الفتوة العربية ، والفتى العربي يرى الرجال قوامين على النساء ، وإذاً ، يجب أن يتصل بالدنيا اتصال معاش ، ليكون رب البيت بحق وصدق ، ولتخضع له نساؤه خضوع العبد الطائع للسيد المطاع ، والرزق يذل أعناق الرجال ، فكيف يصنع بقلوب النساء ؟!

وماذا كانت صناعة محمد قبل أن يكون نبيًّا ؟

كان تاجراً ، والتجارة هي المختبَر الصادق لأخلاق الرجال ، وقد جاز الاختبار بنجاح مرموق .

وماذا كانت صناعة محمد بعد أن صار نبيًّا ؟

أظنه قال : « جُعِل رزقي تحت ظل رمحي »

ومعنى هذا أنه صار فارساً يعيش مما تُغِلّ الرماح والسيوف ، وذلك أكرم أنواع العيش ، وما يليق بنبيّ أن يكون عالة على الأتباع ، ولو كانوا من شرفاء الأغنياء .

وبإقبال محمد على الزواج صار نبيا مدنيًّا ، وصار مسئولاً عن الاتصال بالمجتمع صلةً معاشية ، بعد أن اتصل به صلةً روحية .

ومن المؤكد أن صنيعه هذا قوبل في عصره باندهاش ، واستغراب ، لأنه كان « بدعة » في عُرف رجال الدين ، ولأنه كان اعترافاً صريحاً بأن « الدنيا » مطلبٌ لا يعيب من يتجه إليه من الأنبياء

والذي يراجع الأصول الأولى من الدين الإسلامي — وهي الأصول التي سبقت التفريع والتشقيق — يروعه أن يرى الإسلام يقتصد في شرح معاملة الإنسان مع الله ، ويهوله أن يراه يطنب في شرح المعاملات مع الناس .

فما معنى ذلك ؟

معناه أن الإسلام يمزج بين هذين المطلبين ، ومعناه أن حسن المعاملة مع الناس هو المظهر الصادق للخوف من الآثام والشبهات ، وبدون الصدق في هذه المعاملة لا ينتفع المؤمن بصلاة ولا صيام ، والله يتسامح في حقوقه ولكنه لا يتسامح في حقوق الناس .

ومن أعجب العجب أن نرى القرآن يُنطِق السابقين من الأنبياء بأقوال ينكرها بعض أتباع أولئك الأنبياء .

فما تأويل هذا المنطق ؟

التأويل سهل ، فالقرآن ينزه جميع الأنبياء عن أوهام الأتباع والأشياع ، وما تحدّث القرآن عن نبيّ إلا عرفنا أن الدعوات الصوادق لا تسلم من التصحيف والتحريف .

وبقليل من التأمل ندرك أن ذلك ليس من الغرائب ، فوضوح النصوص الدولية لهذا العهد في المخابرات والمعاهدات لا يمنع من أن تصير من الألغاز عند اشتجار الأغراض ، فما ظنكم بنصوص دينية جرت في الأصل مجرى التلميح تجنباً للعدوان والاضطهاد ؟

والمقام لا يتسع لغير فرضين اثنين : فرض يوجبه الأدب وهو القول بأن القرآن وحيٌ من عند الله ، وفرض يجيزه الجدل وهو الظن بأن القرآن من صنع محمد ، وللفرض الثاني فروعٌ سنشير إليه بعد لحات .

فعلى الفرض الأول يكون القرآن هو الفَيْصَل في تقرير مذاهب الأنبياء ، وعلى الفرض الثاني يكون محمدٌ أخضعَ الأنبياء في أقوالهم وأفعالهم لمذاهبه الذاتية في الوصل بين الدين والمدنية .

وأنا في حيرة بين هذين الفرضين ، ولو كنت من خصوم الإسلام لاخترت الفرض الأول واسترحت ، فليس من الكثير أن يضاف محمد إلى الأنبياء ، ولكن الكثير حقاً أن يصل رجلٌ غير ملهَم إلى الوصل بين العلم والمدنية ، وهو غرضٌ كان يجب أن يتنبه إليه كبار الأنبياء . و « البلية » كل البلية أن الناس عجزوا عن تخيُّل نظام يكون أفضل من نظام الإسلام ، وهو النظام الذي يوجب أن يوزع المرء قواه بين ثمرات الأرض وأنوار السماء .

الإنسانية أجمع تحتقرُ الرجل المنزوي في الكهوف ، والإنسانية أجمع تبغض الرجل الذي لا يعرف غير اقتناص الأموال ، والإنسانية أجمع قد اتفقت على أن الإنسان الكامل

هو الرجل الذى يأخذ نصيبه من الدنيا مع الاحتفاظ بنصيب فى الدين ومحمد هو صاحب هـذا الرأى ، وبه « ادّعى » على زعم أصحاب هذا الفرض أنه خاتم الأنبياء . ومن هذا الملحظ ندرك كيف صار خاتم الأنبياء ، فمن العسير أن نتصور نظاماً أفضل من النظام الذى شرعه محمد عن طريق الوحى أو طريق الاجتهاد .

هنالك فرضٌ ثالث ، وهو أن تكون الضمائر الإنسانية تجمّعتْ وابتدعت هذه الشخصية المحمدية ، لتكون الرمز الذى يصور مثلها الأعلى فى الوجود .

ويمنع من هذا الفرض مانعان حصينان ، أحدهما تاريخىّ وثانيهما فلسفىّ .

فمحمد حديث العهد فى التواريخ النبوية ، ولم يمض من الزمن ما يسمح بجعله شخصية معنوية ، كالذى قيل فى بعض الأنبياء ، أو بعض الحكماء . ألم يَشُكَّ قومٌ فى وجود المسيح وسقراط ؟

أما الجانب الفلسفى فهو يضايق خصوم الإسلام ، لأنه يجعله سريرة وجودية ، وعندئذ يكون من الحتم أن يكون أعظم دين عرفه الوجود .

للباحث المنصف أن يدير هذا البحث كيف شاء ، فلن ينتهى إلا إلى ما انتهينا إليه ، وهو القول بأن شريعة محمد خير شريعة عرفها المجتمع الإنسانى ، فهى إذاً منحة ربانية تستوجب الحمد والثناء . وهل يصدر مثل هذا الفيض إلا عن صاحب العزة والجبروت ، وهو الذى منح « إنسان العين » على صغره قوة تخترق أجواز السماء ، بغض النظر عن فضله العظيم فى إضاءة العقول والقلوب ؟

ثم ماذا ؟

نترك إلى الباحثين المنصفين درس هذه المعضلة بنور المنطق والعقل والعدل ، وننتقل إلى شرح الاصطلاح المعروف بالتطبيق ، فكيف كان الإسلام بعد موت الرسول ؟

شرّق الإسـلام وغرّب ، وجرتْ بين أهله أحداثٌ وخطوب ، حتى جاز القول بأن فريقاً من المسلمين أخطأوا فهم الغرض من الدين الحنيف

وفى حومة ذلك الخطأ نشهد ظاهرتين بارزتين بعنف وطغيان :

الظاهرة الأولى هى الاهتمام باللغة العربيـة اهتماماً يتمثل فى المؤلفات التى تُعدّ بالألوف ، ويتمثل فى قول بعض الفقهاء بأن الصلاة بغير اللغة العربية عملٌ مردود

أما الظاهرة الثانية فهى الإقبال المنقطع النظير على درس الجوانب المدنية من التشريع الإسلامى ، ويمكن بسهولة أن نقول إن « القانون المدنى » لم يشهد فى جميع أدوار التاريخ شرّاحاً أعمق من الشرّاح المسلمين ، جزاهم الله خير الجزاء ، فهم الحجة الباقية على أصالة العبقرية المدنية فى الأمم الإسلامية

وأرجع إلى الظاهرة الأولى بشىء من التوضيح فأقول :

كان المسلمون يرون أنْ لا سلامة للعالم إلاّ بوجود « لغة دولية » يتفاهم بها أهل المشرق وأهل المغرب ، وهل قام فى الدنيا نزاع إلا بسبب انعدام التفاهم بين الناس ؟

وما زال المسلمون يساورون هذا الغرض حتى تحوّل إلى عقيدة دينية ، فصح عندهم أن « اللغة العربيـة أحسن اللغات » ، وأن الصلاة بغيرها لا تجوز ، وأنها ستكون لغة أهل الفردوس . والمسلمون يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن رحمة الله مقصورةٌ عليهم ، وأن طمع سواهم فى الجنة لا يزيد عن طمع إبليس ، وتلك غاية الغايات فى الإيمان بأن « الدين عند الله الإسلام »

ذلك التصور اليوم قد يعدّ من ضروب الخيال ، ولكنه كان حقيقة عند المسلمين الأولين ، وبفضل تلك الحقيقة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التفوق الملحوظ على أكثر الممالك والشعوب .

والغريب فى هذه القضية أن المسلمين الذين آثروا لغتهم بذلك التقديس قد تحرروا فى فهم أغراضها تحرراً لا يعرفه أبناء اليوم ، فقد كانوا يستبيحون إنشاد أشعار المجون فى المساجد وفى أعقاب الصلوات ، وكانوا يرون خصومهم فى هذه الحرية الأدبية قد « تنسكوا تنسكاً أعجمياً » ، ولذلك شواهد يضيق عنها هذا المجال

قد تقول : وما الموجب لهذا التناقض الغريب ؟

وأجيب بأنهم أرادوا أن يجعلوا اللغة العربيـة لغة مدنية لا لغةً دينية ، واللغات المدنية تتحدث عن جميع الشؤون ، ولا تسكت عن شرح العواطف والأحاسيس والأوهام والأضاليل . ألم تروا كيف اتسعت مساجد المسلمين لشرح أشعار النصارى واليهود والصابئين ؟

ويتفرع عن هـذا ما جاء فى التواريخ الإسلامية من أعمال الرجال ، فالإسلام كُتلةٌ واحدة ، فكما تقول فى جد عمر بن الخطاب : حدثنا فلان عن فلان ، تقول فى هزل عمر بن أبى ربيعة : حدثنا فلان عن فلان . وهل ثبت فى أىّ ملة أن رجال الدين تحرروا من التقاليد فقالوا فى الجمال الذى يطوف بالأماكن المقدسة معشار ما قال الشريف الرضى فى قصائده الحجازيات ، وكان

أمير الحج بتفويض من خليفة المسلمين ؟

يجب الاعتراف بأن الإسلام أعطى أبناءه حريات لم تعرفها سائر الديانات ، لأنه لم يكن ديناً فحسب ، وإنما كان ديناً ومدنية

ويجب الاعتراف بأن التطاول على هذا الدين لا يقع إلا من الأوشاب والمأجورين ، فما كان إلا نعمة نورانية جاد بها الله على هذا الوجود

وماذا أقول فى شرح الظاهرة الثانية ، وهى الاهتمام بما فى التشريع الإسلامى من الجوانب المدنية ؟

تنقسم كتب الفقه إلى قسمين : قسم العبادات وقسم المعاملات

ويلاحظ من يقرأ كتب الفقه أن المؤلفين يترفقون فى شرح القسم الأول ، ثم ينطلقون كالسهام عند شرح القسم الثانى ، وتظهر براعتهم فى تشريح دقائق المعاملات

وهنا نكتة تستحق التسجيل . فرجل الدين فى الفرنسية يوصف بأنه Religieux ، ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس

فكيف أمكن لرجال الدين من المسلمين أن يكونوا أئمة فى شرح القوانين المدنية ؟

يرجع ذلك إلى روح الدين الإسلامى ، وهو دين يدعو جميع أبنائه إلى الاندماج فى المجتمع ، ويقهرهم قهراً على الأخذ من منافع الدنيا بنصيب ، ليعرفوا الدقائق من شؤون الناس وهم قضاة الناس . وهل يصلح القاضى للفصل فى نزاع لا يحس له شبيهاً فى حياته المعاشية ؟

كان يقال إن أحق الناس بالإمامة فى الصلاة وفى القضاء هو المتزوج ، ويرجح زوج المرأة الجميلة ، لأنه أقرب إلى التعفف ، بفضل ما يملك من الجمال الحلال

وأقول إنما قدم زوج المرأة الجميلة لأنه يعانى من المتاعب أضعاف ما يعانى سواه . فهو أعرف بشؤون المجتمع ، وأقدر على فهم شؤون المعاش

وأقول أيضاً إن تنقل الفقيه من أرض إلى أرض كان يزيد فى قيمته التشريعية . فالشافعى له مذهب جديد ومذهب قديم بسبب تنقله بين مصر والعراق

وأقول كذلك إن الرحلة كانت شرطاً فى التفوق العلمى عند الأسلاف لفضلها الظاهر فى الاطلاع على دقائق العادات والتقاليد

والقول الفصل أن رجل الدين عند المسلمين لم يكن من رجال القوانين المدنية إلا لأنه كان يساير المجتمع ويراوحه ويغاديه بلا انحسار ولا انقباض

وهل أستطيع القول بأن فى الدين الإسلامى أقطاباً كانوا من كبار الأغنياء ، ومن المتصرفين فى المتجرات والمزروعات ؟

إن الصوفية أنفسهم وهم الغاية فى الزهد لم يملكوا الفرار من المجتمع ؛ فقد كانوا مسئولين أدبيًّا عن تدبير المعاش للمريدين . أليس من العجب أن نقرر أن أصدق ما كتب فى آداب التجارة والزراعة والصناعة هو ما صدر عن أقلام الصوفية ؟

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم أمضى إلى آخر الشوط فأقول :

أحب المسلمون دنياهم فأقبلوا عليها بنهم وشراهة ، فماذا جنوا من ذلك الحب ؟

كان امتحاناً قاسياً عنيفاً إلى أبعد حدود القسوة والعنف . فقد عرفوا به أن لا بقاء للحياة بدون أخلاق ، فكيف كان نصيبهم من شرح دقائق الأخلاق ؟

لا أزعم أنى قرأت جميع ما كتب عن الأخلاق فى جميع الديانات ، وإنما أقرر أنى اطلعت على مجلدات كثيرة فى الأخلاق المنسوبة إلى رجال الدين من غير المسلمين ، فما وجدت لها حرارة تشبه النار الموقدة فى الكتب الإسلامية ، فما سبب ذلك ؟

المصلح المسلم تكتوى يده بنار المجتمع فى كل يوم ، فهو يسكب دم قلبه على القرطاس ، وهو يتحدث عن واقع لا عن خيال ، فهو يقول رأيت وغيره يقول سمعت ، وما أبعد الفرق بين الرؤية والسماع !

الأخلاق فى الكتب الإسلامية منقولة عن تجارب شخصية لا روايات خيالية ، وما خط مسلم حرفاً فى الأخلاق إلا وهو يتمثل مشاهد حية من بني الناس بعضهم على بعض بلا رحمة ولا إشفاق

معاملة المسلم مع الله تنحصر فى هذه الكلمة الوجيزة

« أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

أما معاملة المسلم مع الناس فلها ألوف وألوف من الدقائق والتفاصيل .

فهل كان ذلك إلا لأن الإسلام أول دين عني عناية صريحة بالشؤون المدنية ؟

قد يقال : وكيف جاز أن يسفه المسلمون بعد التحليق ؟

حاجة المدنية إلى الدين

للدكتور محمد البهي



للجماعة الإنسانية مهمة ، ولها هدف أخير : مهمتها تنظيم رغبات الأفراد ، والعمل على تضييق دائرة التصادم — إن لم يكن منعه — بين هذه الرغبات ، بعضها ضد بعض ؛ وغايتها من وراء ذلك حياة الوئام والوفاق ، أو حياة « السلام » أو سيادة « الخير » على نوازع الشر

هذا هو الشأن فى كل جماعة إنسانية ، حتى فى الفطرية منها . فزعيم الجماعة البُدائية يدعى — حتى فى اللحظة التى تغالب أنانيته على تصرفاته — أنه يعمل للخير والسلام ، وأنه يسعى للتوفيق بين أفراد رعيته فى رغباتهم ومآربهم

وقانون الجماعة المهذبة يضع – ما أمكن — نصب عينيه « صالح » الجماعة أو « العدالة » أو « المساواة » ، ويحاول أن يبرز هذا الهدف فى كل ناحية من نواحيه محافظة على السلام وحباً فى خير الجماعة

ولا تتميز الجماعة الفطرية عن الجماعة المهذبة إلا بأن البواعث « الشخصية » أو الأنانية هى التى تتحكم غالباً فى تحديد الخير والسلام ، وفي توجيه الأفراد نحو الخير والسلام ؛ بينما يحتكم قانون الجماعة المهذبة إلى عوامل مجردة — بقدر الإمكان — عن المعانى الشخصية فى نظرته إلى « الصالح العام » أو « المساواة » . وهذا بعينه هو الفرق بين الطفل والرشيد فى الإنسان

* * *

وخير الجماعة الإنسانية فى الواقع هو فى الحيلولة دون قيام النزاع والخصومة بين أفرادها بسبب اختلاف رغباتهم . إذ من شأن اختلاف الرغبات حدوث التصادم بينها عند محاولة تلبيتها

وهذه الحيلولة تتم سواء أكانت بالدعوة إلى كَبْت الرغبات ، وإلى الإقناع بالتنازل عنها أو عن كثير منها بدعوى أن ليست لها قيمة ذاتية كما تصوره لنا دعوة « الزهد » فى متع هذه الحياة ، أم كانت بتوزيع نفس هذه المتع ـ بناء عن اعتبارها وتقديرها ـ بين أفراد الجماعة لكل منها نصيب حسب كفايته التى تختلف حسب اختلاف مقاييسها عند الجماعات المتعددة ، كما تنصح بذلك « النظرات » الجديدة فى الحياة

والوسيلة الأولى وهى دعوة الزهد ، أو دعوة القصد فى متع هذه الحياة كانت طريق العقائد الأولى الشرقية ، والدارس

وأجيب بأن المسلمين لم يُسفَوا إلا بعد أن فُتِنوا وزُلزلوا وتوهموا أن المدنية ليست من شؤون الدين

أليس مما يعيب الرجل المسلم فى هذا العصر أن تكون له مطامح سياسية واقتصادية ؟

إخلعوا النِّير عن أعناقكم يا مسلمى هذا الزمان ، ويا عرب الزمان ؟

لقد فضَحنا « أشراف » مصر حين طالبوا بحقهم فى التحرر من الجندية

وفضحَنا «عربان» مصر حين طالبوا بامتيازهم فى التخلص من الجندية

فماذا يريد أولئك وهؤلاء ؟

محمد هو أول نبيّ وآخر نبيّ حمل السيف

ومحمد هو أول نبى وآخر نبى عرف قيمة الإرادة الذاتية فقضى بأن واجب المرء أن يخاطب ربه بلا وسيط

ومحمد أول نبى وآخر نبى كَرِه لأتباعه القرار والاطمئنان

« البحر وراءكم ، والعدو أمامكم » فأين تذهبون ؟

غيّروا ما بأنفسكم ، يا مسلمى هذا الجيل ، ويا عرب هذا الجيل واحترسوا ثم احترسوا من أن يكون لمخلوق فوقكم سلطان

أنتم الأعلون ، وإن كنتم مضطهدين ، ولن تمر أعوام قبل أن تأخذوا مكانكم فوق هامة الوجود الصحيح

ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين

زكي مبارك

الفلسفية القديمة ، وطريق الديانات السماوية كذلك . فكلها وضع « الخير » غاية للفرد وللجماعة ، وكلها تقريباً نصح ونادى بالزهد كعامل رئيسي من عوامل الوصول إلى هذه الغاية . والفرق بينها أن العقائد الأولى كعقائد قدماء المصريين والهنود والفرس تنسج « الخير » كغاية للانسان فى قصة شعرية أو فى حكاية فرضية -- وهى بينها تختلف فى مقدار هذا الفرض وقيمته ، وفى ذلك العنصر الشعرى ومقداره — بينما الفلسفات القديمة أو الديانات السماوية ، وإن سلكت طريق الإقناع تميل إلى تحكيم المنطق والالتجاء إلى العقل فى الدعوة إلى « الخير » والتقرب من مثاله ، أو التقرب من الله الذى هو عنوان الخير المطلق . والفرق بينها كذلك فى قيمة النظرة إلى الزهد كوسيلة إلى تلك الغاية ، فبعض العقائد الشعبية الأولى كبعض المدارس الفلسفية القديمة وبعض الديانات السماوية يبالغ فى تقدير الزهد وفى صلته بسيادة الخير فى الجماعة ؛ ولذا يتشدد فى طلبه من الفرد ويوصى به إلى درجة « الحرمان » أو « الإفناء » . والبعض الآخر من هذه الاتجاهات الثلاثة يعترف بالزهد كوسيلة للوصول إلى الخير ويقره كذلك - ولكنه لا يطلب أن يكون موقف الإنسان من هذه الحياة سلبياً فقط ، بل بجانب نصيحته له « بالقصد » فى متعها يوجه نشاطه وحيويته إلى عمل إيجابى للغاية نفسها ، وهى غاية الخير

أما الوسيلة الثانية وهى محاولة تنظيم متع هذه الحياة بين أفراد الجماعة الإنسانية تجنباً للتصادم والنزاع بين رغبات الأفراد المختلفة فهى طريق الأخلاق كعلم استقل عن التأثر بالميتافيزيقيا وطريق القانون . وبعبارة أخرى هى طريق الإنسان الحديث الذى رغب فى الاستقلال بنفسه عن الدين وعن الفلسفة الأولى عند تحديده للحياة وتحديد مهمته فيها

فالبحث فى تحديد « السعادة » أو « الواجب » مهمة علم الأخلاق ؛ واعتبار « سعادة » الجماعة أو اعتبار عمل « الواجب لذات الواجب » هو هدف التشريع الحديث والقانون الوضعى ، وهو كذلك أيضاً أساسهما . فالقانون فى مواده المختلفة المتعلقة بنواحى الحياة للفرد والجماعة يحاول أن يُشعر الفرد ويُفهمه أيضاً أنه إذا لم تُقضى له رغبة بأن هذه الرغبة لم تضع عليه فى الواقع ، إذ « سعادة » الجماعة أو « الواجب » ، أو ما صاغه القانون ذاته من « الصالح العام » طلب إحلال أمر آخر محل هذه الرغبة الفردية الخاصة إلى حين ؛ وذلك نظير تمتعه — أى الفرد — بالصالح العام فى فرص أخرى وهى كثيرة

فالقانون إذاً لا يرغّب عن هذه الحياة ، ولا يقلّل من قيمتها ، وقلما يعترف بنهايتها أو بتحولها إلى حيـاة أخرى ثانية . ولهذا رأى مهمته فى تنظيم رغبات الأفراد ، وفى التسوية فى تلبيتها لهم بقدر ما يمكن ، دون أن يراها مثلاً فى إقناعهم بالعدول عنها إلى مُتع أخرى ألذ وأشهى وأدوم كذلك فى حياة أخرى

والقانون والأخلاق كعلم من أخص مظاهر المدنية الحديثة . وهذا معناه أن المدنية الحديثة تتميز بالميل إلى الاستقلال وبمحاولة هذا الاستقلال ، أيضاً ، عن الدين وعن العقيدة وعن الفلسفة الميتافيزيقية فى فهم « غاية » الإنسان وفى تعيين الطريق لتحقيق هذه الغاية

وكما كان عنوان الدين ، أو من لوازم الدين والعقيدة ، الدعوة إلى « الخير » ، وكما كان من وسائله إلى تحقيق ذلك النصحُ بالزهد فى هذه الحياة ، كان عنوان المدنية الحديثة تحديد « الصالح العام » وتقريره ثم محاولة تحقيقه بتنظيم انتفاع الأفراد بهذه الحياة نظرتان مختلفتان فى الحيـاة ، وتوجيهان للانسان فيها مختلفان كذلك

* * *

وربما يبدو أن تنظيم الانتفاع بهذه الحياة بين أفراد الجماعة الإنسانية ، وهو محاولة القانون ، ليس أشق على طبيعة الإنسان كطلب الزهد منها الذى هو نصيحة الدين ؛ والعلاقة الصحيحة بين تنظيم الانتفاع وبين الزهد ليست اليسر من جهة ولا العُسر من جهة ثانية ، بل هى تحكم إرادة الإنسان فى طرف وإغفالها فى طرف آخر . إذ طلب الزهد معناه اعتبار إرادة الإنسان وتحكيمها ، بينما تنظيم الانتفاع معناه الركون إلى سلطان القانون وتحكيمه وحده . فالزهد وإن بدا أنه مظهر سلبي هو عمل إيجابى ، إذ هو مظهر الإرادة للفرد

وحقاً إذا كانت غاية القانون أو غاية المدنية هى غاية الدين والعقيدة ، لأن مآل رعاية الصالح العام ، أو رعاية سعادة المجموع ، أو تقرير عمل الواجب لذات الواجب هو مآل عمل الخير ؛ وحقاً

إذا كان في محاولة تنظيم الانتفاع بهذه الحياة بين أفراد الجماعة تحقيق لنتائج الزهد ، إذ أن في الرغبة عن متع هذه الحياة أو عن كثير منها تضييق لدائرة النزاع بين الأفراد وهو غاية التنظيم ، إلا أن في الدين والعقيدة معنى آخر ليس في القانون وليس في علم الأخلاق ، هذا المعنى الآخر هو أن موحى الدين له نهاية الحكمة وكمال المعرفة في نفس الإنسان المتدين أو المعتقد طبقاً لمبدأ التأليه ؛ وهذه صفة للمعبود تدع في نفس الإنسان المتدين عدم المناقشة فيما أوحى به الدين كما تدع فيها أيضاً الرضا بما جاء به الدين . فطاعته للدين إذاً طاعة نفسية ، ومحاولة الشذوذ عن أوامره ونواهيه أمر غير قريب إلى نفسه . ولكن واضع القانون ، في نظر الخاضع له ، إنسان غير معصوم ، وبالأخص غير منزه عن التأثر بالعوامل الشخصية في تقنينه لأنه من نوعه الإنساني وليس من جنس آخر أسمى منه . فالقانون له احترام من نفس الفرد الخاضع له ما دام لم يتعارض مع رغباته الخاصة . فإذا تعارض قل الاكتراث به في نفسه . لأن الانحراف ـ هكذا ينظر الفرد ـ عن الصواب قد يكون في القانون نفسه دون أن يكون في رغبات الفرد . فوقف الفرد إذاً من القانون موقف الناقد ؛ وأساس النقد عنده رغباته الخاصة في الأغلب ؛ وطاعته للقانون في كثير من الأحايين ليست لذات القانون بل للخشية من منفذه والقائم بأمره . وإذا قل عنصر الرضا النفسي في الطاعة كانت محاولة المخالفة للقانون موجودة في النفس ، ووقوعها مرهون فحسب بضعف الرقابة أو بزوالها

فمحاولة المدنية بقانونها وبأخلاقها الاستغناء عن الدين وعن العقيدة محاولة قاصرة ، نجاحها لا يتعدى نطاقاً ضيقاً وهو نطاق الخاصة ، وهي في حاجة في الواقع إلى الدين وإلى أن يسود التدين جماعتها . ومهما استعانت بالعلم الذي هو مظهر آخر من مظاهرها ، فليس في العلم وحده ما تحتاجه من العون ؛ إذ الإنسان كما هو مودع في فطرته الميل إلى العلم وإلى الكشف ، مودع في فطرته كذلك الاطمئنان والركون إلى «السر الخفي» ، وتأليهه أو تعظيمه للغير ظاهرة من ظواهر هذا الاطمئنان والركون . والله في نظر الإنسان رمز كل سر وكل خفاء ، فلا يُدرك كنهه ولا يُوقف على حقيقته . ولهذا كان له أرفع درجة من تعظيمه واحترامه . وما ينسب إليه عظيم ومحترم كذلك ؛ فقوله قل أن يخالف ، ووصيته ندر ألا تنفذ ، لأن المخالفة وعدم التنفيذ معناه الشك في هذا التعظيم الذي صار الآن أمراً مقرراً . . .

* * *

وإذا كنا ندعو المدنية بوجه عام إلى دين وإلى تدين فلسنا متحيزين إذا دعوناها إلى الإسلام بوجه خاص ؛ لأن الإسلام في تقريره الزهد كوسيلة للوصول إلى الخير لم يبالغ في طلبه ولم يعتمد عليه وحده ، بل جعل بجانبه تنظيم الانتفاع بهذه الحياة — بعد أن أباح التمتع بها — وعمل على تنظيم علائق الأفراد في دائرة هذا التمتع

وليس القانون ، وليس علم الأخلاق ؛ وبعبارة أخرى ليست المدنية هي التي كشفت عن « رعاية الصالح العام » ، بل من قبلُ وضعها الإسلام في تنظيمه « للمعاملات »

ففي النهاية جمع الإسلام كدين وكتشريع بين « الخير » وبين « رعاية الصالح العام » ، وفي الوسائل نصح بالزهد إلى حد ما وعمل على تنظيم الانتفاع بهذه الحياة بعد أن أجاز الانتفاع بها وهو بهذا يعتبر إرادة الإنسان كما لا يهمل رقابة القانون

محمد البهي

على ذكرى الهجرة

القوة والدين

للأستاذ راشد رستم



إن الهجرة التي قام بها نبي الإسلام محمد بن عبد الله عليه السلام – حادث تاريخي، ليس له من صبغة الدين إلا أنه من أيام رسول الله

غير أن أثرها في الإسلام عظيم

* * *

لما أراد المسلمون الأولون أن يؤرخوا لدينهم لم يجعلوا ذلك يوم ولادة الرسول، ولا يوم نبوته — بل يوم هجرته

وقد كان هذا هو رأى رجل الإسلام القوى عمر بن الخطاب — تذكرةً للمسلمين بالاضطهاد الذى لاقاه رسولهم — وتنبيهاً إلى الثبات على المبدأ، وتبييناً لضرورة الجهاد في سبيل الدعوات

ذلك هو فضل يوم الهجرة: فضل تاريخي، فضل اجتماعي، فضل للحياة الآملة المجاهدة. هذه الحياة التى لا تقيم للحق وزناً إلا بالجهاد في سبيله، والتى لا تعرف للحق وجوداً إلا إذا قام له صاحب

وصاحب حق الإسلام هو عظيم المجاهدين له عليه السلام، إذ لم يظهر حقه وقد كان خافياً إلا بعد أن جاهد له، وقد اعترف به الزمان وظل به معترفاً

* * *

ولكن كان إذا ونَى أنصار الحق عنه قليلاً ونَى الزمان عنه قبلهم، وإن شدُّوا له وتجمعوا عاد الزمان فأقامه لهم على هام الدول والأيام واضحاً ثابتاً

* * *

ذلك منطق الزمان. هو لا يعرف غير الغالب، والغالب أن يكون الغالبُ صاحبَ حق

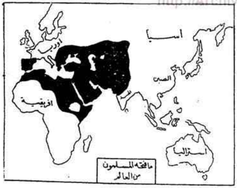
ولكن الغالب كذلك ألا يكون الحق غالباً إلا بالقوة، فإن كانت غلبةُ الحق لا شك فيها، فإنه وهو غالب يكون كذلك هو القوى ...

وقد يكون الباطل غالباً. ولكنه وهو غالب، يكون كذلك هو القوى

غير أن دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة

* * *

لذلك لما كان كفار العرب، وهم مع باطلهم أظهر على الرسول وهو مع حقه، كانوا كذلك لأن القوة كانت لا تزال معهم؛ حتى إذا ثبت محمد بحقه في الميدان واستمر مجاهداً فاز بالقوة يدعم بها حقه ويديمه



ومن مزايا الحق أن الاعتقاد بيقينه يجعل من الضعف قوة، كما يزيد القوة قوى

ومن ذلك كان نصر الحق بالثبات عليه والجهاد له

* * *

ورسول الإسلام لم يكن ينقصه الحق ولا مزاياه؛ وإنما هي القوة... لذلك كان يعمل لها بعد أن تأكد من يقين حقه، وكذلك كان من معه

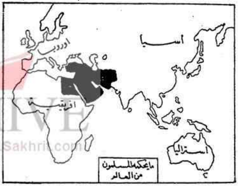
وهكذا كان ثبات النبي مضرباً للأمثال

فكم هُدد ، وأوذى ، ورُغّب ؛ فلم يجبن ولم يرجع عن جهاده . بل كان يثور للحق ، ويثير فى نفوس أنصاره الروح النقية القوية ، والعقيدة الصحيحة بأن القوة أولى بها أن تكون للحق ، وأن الحق لا بد له من القوة ما دام الباطل يستعين بها

فلما فاز الرسول بالقوة ، ظهر على أعداء حقه

وهكذا كان حال السابقين من أهل الدعوات ، فما تمكن دين المسيح عليه السلام إلا بعد أن دان له الامبراطور قسطنطين العظيم ، فدعمته قوة السلطان

وما كان زاهياً زاهراً دين موسى عليه السلام إلا لما كان السلطان لبنى إسرائيل ؛ فلما شالت نعامتهم ذهبت ريحهم



مايحكمه المسلمون من العالم

على أننا لا نقصد بالقول أن نحط من قيمة الحق وأن نرفع من القوة ، ولكننا نقرر مركز كل منهما من الآخر ، ذلك المركز الذى توجبه جِبِلّة البشر وطبيعة الإنسان ، تلك الطبيعة التى فطر عليها من أن يَمَلّ المعنويات ويعظّمَ المحسوس

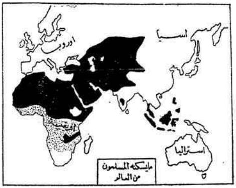
إن هذه الجبلة الآدمية هى التى تدفع بالحق يسعى وراء استخلاص القوة لنفسه ، وإنه لعمل محمود

ليس فى السعى وراء القوة عيب ، إذ القوة أظهر مظاهر المحسوس ، وهى لسان الإنسان الفصيح وبيانه المفهوم ، وهى الواسطة القوية لنشر الفضيلة المطوية ، كما أنها ترفع الباطل إن ظفر بها مختلساً

وسلامٌ على الحق إذا لم تؤيده القوة
وسلامٌ على القوة إذا لم تؤيد الحق

***

ليس فى استعانة الحق بالقوة تقليل من قيمته أو حط من قدره . فالقوة وسيلة الطبيعة للبقاء ، والإنسان حيوان قبل أن يكون عقلاً ..



مايملكه المسلمون من العالم

لذلك يسبق فى علمه إدراك القوة قبل أن يدرك ما هو حق وما هو باطل

فإذا هو أدرك لأحدهما معناه ، عمل لبقاء ما اختار منهما لنفسه

والبقاء فى هذه الحياة هو للأقوى

فيا أيها الصالحون ، اعملوا على أن تكونوا الأقوياء . .

وانظروا فى ذلك وأنتم فى مرحلة لكم جديدة ...

راشد رستم

حكم فى الجنحة المستأنفة رقم ٨٨٩٠ سنة ١٩٤٠ ضد محمد السيد الرازق من درب الزراز بتغريمه ١ ج لبيعه ملحاً بأزيد من التسعيرة ونشر الحكم بمجلة الرسالة والثقافة

حكمت محكمة المنصورة العسكرية فى القضية رقم ٤٩٩ سنة ١٩٤١ بحبس فاطمة ابراهيم عبد الحليم من الدرس شهراً بالشغل لبيعها قمحا بسعر يزيد عن التسعيرة

حكمت محكمة المنصورة العسكرية فى القضية رقم ٥٣٠ سنة ١٩٤١ بحبس سلامة محمد داود من كوم النور شهرين بالشغل لبيعه بترول بسعر يزيد عن التسعيرة

حكمت محكمة المنصورة العسكرية فى القضية رقم ٥٣١ سنة ٩٤١ بحبس محمد الطنطاوى عبيد من بهنبا شهرين بالشغل لبيعه أذرة بسعر يزيد عن التسعيرة

حكم فى القضية نمرة ٦٨٠٣ سنة ١٩٤٠ محافظة مصر على رزق على صبي بقال بسوق الزلط ن ٦٢ موسكي لأنه فى ٢٥ يناير سنة ٤٠ بدائرة قسم باب الشعرية باع كبريتاً بأزيد من السعر حضورياً بغرامة ١٠٠ قرش ونشر الحكم بمجلة الثقافة والرسالة وتعليقه على باب المتجر وبسراى المحافظة على نفقته فى ٤ يونيو سنة ٩٤٠

من مذكرات عمر بن أبي ربيعة

أيام حزينة

للأستاذ محمود محمد شاكر



« قال عمر بن أبي ربيعة ... » :

وجاء ابن أبي عتيق [هو عبدالله ابن محمد أبي عتيق ابن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق] ، فوالله لأن كنتُ بين ضِرْسين من الجبل يدوران عليَّ دَوَرانَ الرَّحَى ، أهونُ عليَّ من أن أكون لقيتُ هذا الرجلَ الحبيبَ !

كانَ رجلاً ضرْباً خفيفَ اللحم أحْمَرَ ظاهِرَ الدَّم كأنَّ إهابَه شُعْلَةٌ تَشِبُّ وتتلهَّب ، أفوعَ فينانَ الشَّعْر ، مخروطَ الوجه ، أزهرَ مُشْرِقاً كأنَّ بين عينيه نجماً يتألَّق ، يُقْبِل عليك حُرُّ وجْهه بعينين نجْلاوين قد ظَمِئ جَفْناها حتى رقَّا ، يرسِلُ إليك طرفَهُ فترى الضحكَ في عينيه خِلْقَةً لا تكلُّفاً . ما أحسبني رأيتُه مرَّةً إلا خِلْتُه دُعابةً قال لها الله : كوني ! فكانَتْهُ . وكأني به قد دَخَل على أمِّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق وهي تَكِيد بنفسها — في مرضها الذي ماتت فيه — يقُول : كيف أصبحت يا أمَّاهُ ؟ جعلني الله فِداكِ ! فتقول عائشة : أجِدُني ذاهبةً يا بُنَيَّ ! فيقول : فلا إذَنْ يا أمَّ المؤمنين ! ! فتتبسم عائشة وتقول : حتى على الموت يا ابن أبي عتيق ! ! فيقول : أرضاكِ الله يا أمَّاه ! لو جاءني الموتُ كأكرهِ ما يأتي على حيٍّ ، ما تركْتُ له دُعابتي حتى يستضحكَ ، فيرحَلَ بي عن الدُّنيا بوجْه غير الذي جاء به !

فلو أنَّ امرأً من عُرْض الناس لا أعرفه ، جاءني فزعم أنَّ نجماً في السماء بكى ، وأن القَمَرَ مدَّ إليه مثلَ اليَد فكفكف من عَبَراته ، لكانَ أقربَ إليَّ منْ أن يأتي آتٍ يقول هذا ابنُ أبي عتيق يمشي في الناس بعينين ضارعتين خاشعتين ذاهلتين يُعرفُ فيهما البُكاء !

رجل صالح تقي خفيف الروح نشوان القلب ، قد انحدر من جده [عبد الرحمن بن أبي بكر الشاعر] ، حنين الشاعر حين يرى الدنيا كالغانية المنعَّمة تتصبَّى له وتتقتَّل ، فيحن إليها بصبَوات الشباب المتوهِّج ... وآب إليه من جده [أبي بكر الصديق] حنَانُ التقي وهو يرى الدنيا كالناشئة الغريرة لا تزال تنشُدُ تحت جناحه دِفءَ الأبوَّة فتأوي إليه وتتضوَّرُ ، فهو يخفض لها من رحمة الوالد المتحنن ... فابن أبي عتيق من هذين الأبوين كالربيع : جمال وشباب ، ورقة وحنان ، وفرح لا ينتهي

وكنتُ أجدُه فيما يتوقَّدُ عليَّ من الكُرَب كالغمامة الغادية : ظِلٌّ وريٌّ ، ثم لا يزالُ بي حتى أنام إلى دُعابته ، فإذا آلامي تطوف بي من بعيد كأنها أحلام ، بعد أن كانت في دمي جمرةً تتلذع . ولقد أكونُ مما أستعصي عليه بأحزاني ، فأريدُ أذهبُ عنه نافراً أبتغي أن أعكُفَ على آلامي كما يعكُفُ العابد على بُدِّه ، فما هو إلا أن يأخذَ ينشد :

متى تَرَ عيْنَيْ مالكٍ وجِرانَهُ ... وجنبَيْه ، تعْلَم أنه غيرُ ثائرِ
حِضَجْرٌ ، كأمِّ التَّوْأمين توكَّأتْ ... على مِرْفَقَيها مُسْتَهِلَّةَ عاشرِ (١)

فينشد أغرب إنشاد وأعجبه ، ولا يزال يحرِّكُ ويشير ويمثِّل ، فوالله ما من ساعة أنشدنيها هذين البيتين ، وأقبل عليَّ يُربِني ما يأتي به ، إلا نَبَع الضحك من قلبي دفعة حتى ما أتماسك معه

فكيف به اليوم وقد سكنَ كأنه دمعةٌ خافتة تئنُّ تحت الزفرات ، يمشي إليَّ كأن أيامه تطوفُ به ثاكلات نائحات ، يغض طرفه كأنما يُمسك عبرةً همَّتْ هاربة من الأسر ، يطأطئ هامته كأنما يقول للزمن : تخطَّ ، فلم يبق بيني وبينك تحملُ أيها الجبَّار ، يستكين حتى لإخالُه يجمعُ أطرافَ نفسه لا يزاحمُ أفراحَ الناس بما يريدُ أن يتنفَّسَ من أحزانه

---

(١) الجران : باطن عنق البعير ، واستعاره الشاعر للسخرية . والحضجر : العظيم البطن الواسعه ، وهو حرف ساخر الجرس والحركة .

لك الله يا ابن أبي عتيق ! لقد كانت لك كالجدول النّامي النمير : هو سرُّ الأرض ، وسرُّ العود ، وسرُّ الزَّهر ، وسرُّ العطر ؛ فلما جفّت عنك همدت أرضُك ، وظمئ عودُك ، وصوّح زَهرُك ، وتهارب عطرُك ... زوجةٌ كانت تستودع روحك مع كل شارق ، ما تتملّى به أفراحك ولهوك ودُعابتك ، فتخرج إلى أحبابك لتحمل عنهم همومهم فتفرقها في ذلك البحر الخِضَمّ من الفرح والابتسام والرضى !

* * *

ودخل ابن أبي عتيق فسلّم سلام الذاهل المتولّه ، ثم جلس كأنما هو يلقي عبئاً ثقيلاً كان يمشي به ، ثم نظر في عينيّ بعينين نديّتين ترى في غَورهما ذلك التنّور المتضرّم يتقاذف شُعَله في ثنايا النفس وفي مسارب العاطفة . وأدام النّظر لا يرفعه عني كأنما يقول : انظرْ واعرفْ ولكن لا تتكلّم ! فأشهد أني افتقدتُ ما أقولُ أعزّيه به أو أرفّه عنه ، بل كأنما أفرغ بعينيه في عينيّ من أحزانه ، حتى أراني أجد مسّ النار في صدري وهي تستعر ولكني خفتُ على صاحبي ورفيقي إن أنا سكتُّ له ، أن أكون قد خلّيت بينه وبين همّه ، وإن أحدنا لو قعد يمارس أحزانه يوماً بعد يوم لصرعته . أجل ! وإن الحزن ليجثم على النفس كالسّبع الضاري ، حتى إذا عبر إليها وقف يتأنس متلفّتاً يريد ما يختلج أو يتحرّك ، فما هو إلا أن يُهوى إليه فيبطش به ، أو ينشب فيه براثنه ينفضه ثم يقضقضه حتى يهمد . وإذا خُلِّي السبع لا يُذاد ولا يُطرد بقي حتى يتأبّد ويستوحش . ولا يزال على عادته يستمرئ كل ساعة فريسته يغمس في دمها أو يَلغ ، ثم لا يكفُّ حتى تكفَّ الحياة عما ينبض أو يتنفّس

وأخذت أزوّر له الأحاديث في نفسي . فلما هممت بها لم أقل إلا ما يقول الناس : عزاءك يا أبا محمد ! فوالله كأنما هِجْت بها الطير الجثوم ، وظل وجه ابن أبي عتيق يروح الدم فيه ويغدو ، وجعلت عيناه ترسلان على نظراتهما الدمعَ الذي لا يسفح ، والعَتْب الذي لا يتكلم ، وظلّ صامتاً ، وراحت نفسي تنخزل عما أقدمت عليه ، ولكنه لم يلبث أن زفر إليّ زفرة خلت في نفثاتها شرراً يتطاير . ثم قعد يتململ حتى قال :

إن أيامي — يا أبا الخطاب — قد استحالت تيهاً أمشي فيه على مثل هذه الجمرات ، ولقد كنت مما عهدتني ، والأيام من حولي عُرُس لا أعدم فيها ما أطربُ له . كنت إذا ما حزن بعض أيامي ، أجد من أفراح الماضي ما أهرب إليه بالذكرى ، وأتوهّم من نشوة الآتي ما أترامى إليه بالأمل ، فكنت أعيش بفرحةٍ أحضرُها أو تحضرُني لا أخاف ولا أجزع ولا أتوهم في الحياة إلا الخير . فأنا وقد أبت بغتات القدَر إلا أن تنتزع من كفّيّ ما كنت أضنّ عليه ، فهيهات لها بعد اليوم أن تطيقَ انتزاعه من فكري . آهِ ... آهِ يا عمر ! كانت ملء عيني وروحي وقلبي . كنت أعيش تحت نسيمها كالنشوان ذاهلاً عن الألم مهما أمضّ ، مستصغراً للكبير وإن فدح ، راضياً باسماً متحفّفاً ... إذ كانت هي هي الأماني تتجدّد مع أيامي عليّ وتتبلّج مع كل فجر في قلبي ، ما كنت جزوعاً ولقد جزعت ! كيف قلت : عزاءً يا أبا محمد ! ها الله يا ابن أبي ربيعة

كيف صبري عن بعض نفسي! وهل يصبرُ عن بعض نفسه الإنسان ؟

كانت بيني وبين الدنيا ، وكانت آية الرفق والفرح ، فكنت أرى الدنيا بعينيها مشرقةً من تحت غياهب الأحداث ، فالآن إذ نأت عني ، كيف أرى إلا قِطعاً من الليل تغتالني من كل وجه ، أو أشلاء من الدياجي تجثم لي بكل سبيل ؟

ثم رأيت في عينيه المَلل وهو يطوي على نظراته ما نشرته الحياة من همّ النفس ؛ وتخيلته — حتى كدت أتبينه — شبحاً ينساب في ظلمة الليل فرداً قد انخلع من الحياة وأسبابها ، فهو يضرب في حشا الظلماء بسآمة لا تهتدي ولا تريد أن تهتدي ، وقد كدت مما شجيت له أن أدع إليه الحديث حتى يستتمّه ، ولكني أعرف في قلبه الرِّقّة ، فخشيت أن يمضيَ به الحزن على غلوائه ، فقلت له :

مَهْ مَهْ يا أبا محمد ، والله ما أنكرتك منذ عرفتك ، ولكني اليوم منكر لك أو كالمنكر . أليس لك في إيمانك وإيمان آبائك معتصم أيها الشيخ ؟ ما إسلامُك النفس للجزع وما غلوُّك فيه ؟ إن امرأً يؤمن بالله واليوم الآخر لخليق أن يستكين إلى قضاء الله استكانة الوليد إلى أمه . وإن أمراً يختاره الله لامرئ هو أهدى سبيليه لا ريب ، شَقِيَ بذلك أم سَعِد ، وما يمسك النفس على أحزانها للأمر من قدر الله إلا الشيطان . خبّرني يا أبا محمد ! هل ابتُلِيَ الناس فيما ابتلوا به بما هو أفظع من فجيعتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ كلا ! فقد حزن الناس حتى أخذتهم آخذة ، وحتى أنكر أحلمهم حلمه ، وحتى إن بعضهم ليوسوس ، فقام إليهم جدُّك الصديق فرد الناسَ إلى أحلامهم ، وهو أشدهم حزناً على صاحبه ورفيقه ؛ فعلّم الناس أن الحزن للقلب وحده ، وأن

العقل والجوارح إنما هي للعمل ، وأن هذا هو طريق الإيمان بالله وبقضائه : خيره وشره ، أفأنت من يجور عن سنة الله وسنة المهتدين من آبائه يا أبا محمد؟ كنت المرء الصالح الذي يرى الدنيا بعيني زائل ، فما بالك اليوم تراها بعيني متشبث قد أنشب فيها أمثال البراثن من عقله وفكره ، فهو يتأبى أن يدور في وهمه أنه مفارقها ؟

قال ابن أبي عتيق :

حنانيك يا عمر ! فوالله ما تعلمني يا ابن أبي ربيعة إلا ما علمت . لقد تجمت مني الحوادث صخرة مُلَمْلمة لا تضرع . كم سحرْت من الدنيا وأحداثها ، فجعلت أطويها في دُعابتي طيّ الملاءة ! كنت أتخفف منها بنشوة أُحدثها في قلبي ، فلو كان عليه مثل الجبل من الهم لطار فيها كما تطير خافية من جناح . ولكني اليوم ... آه ! لقلّ ما جربت يا عمر ! أسلمتُ لله مُقبِل أمري ومُدبِره يصرفه كيف شاء . ولكني أجد هذا القلب المعنّى لا يزال يخفق بالذكرى ؛ أفأنت منكر عليّ يا عمر أن أذكرها نسيماً رفرف بين الجوانح والقلب ؟ أنّى لي أن أُلوي النفس عن آثارها ، وما أكاد أرى شيئاً إلا خلته يحدثني حديث الثاكل : أنين وحنين ؟ فأين المهرب ؟ دع عنك يا أبا الخطاب ! أأراك تلحاني على الجزع ، وما على ظهرها أشقى ممن يصبح ليفتقد في نهاره حلماً ضلّ عنه مع الفجر ؟ كم خلوت إلى هذه النفس ألومها كالذي تلوم ؟ وكم وقفت على هذا القلب أذكّره ما يذكر الناس مني ، فإذا الذي كان بالأمس قد أصبح وكأنه أديم مرقوم قد تفرّى عاث فيه البلى فمحاه . أريد ، ويا لضلّتي فيما أريد ! أنا كالساري في لجة الليل يلطم في سوادها ، قد أضاع لؤلؤة يبحث عنها بين الحصى والرمال ! . . . لن أعود إلى الناس حتى أجد لؤلؤتي يا أبا الخطاب ... لن أعود

ورأيت الرجل ينتفض انتفاضة المحموم من هول ما يجد ، فرحمته ، ولكني آثرت أن أدور على بُنيّاته ، عسى أن يأوي لهن فيؤوب إليّ كبعض ما كان ، قلت :

ظلمت نفسك يا ابن أخي فظلمت من لا يلوذ إلا بظلك . صغيرات ضعيفات ضائعات : فمن لهن بعدك ؟ لو كنت وشأنك لهان الأمر ، ولكنك استحفظت من لا يحفظه بعد الله إلا رحمتك ، ومن لا يغذوه بعد الطعام إلا حديثك ، ومن لا يضيء له وجه الدنيا بعد النهار إلا ابتسامك ، ومن إذا أهمل ضاع عليك ضيعة الأبد . أتهين بناتك منها وبناتها منك ، فوالله ما تذكرها ذكراً في شيء هو أكرم وأحب وأرضى عندها منهن . أجمل يا أبا محمد ، أجمل !

فرفع إليّ رأسه ونظر ، ثم ربا صدره بالزفرات وهو يقول :

لقد كنت أخشى لو تمليت خشيتي !
عليك الليالي كرّها وانفتالها
فأما وقد أصبحت في قبضة الردى
فشأن المنايا ، فلتصب من بدا لها

. . . لولا علمت يا عمر ! كيف ـ وربك ـ كنت تراني أحبوهن من قلبي خفقات لامعات باسمات ؟ كنت لو أطلقت أن أجعل قلبي بينهن لهواً يتلعّبن به لفعلت ! فانظر إليك ماذا ترى ؟ ما شيء أجتلب به على قلبي الألم كنوافذ الإبر إلا رؤية هؤلاء الصغيرات الضعيفات الضائعات ؛ وإن إحداهن لتعدو إليّ تستأوى فأحملها ؛ فكأن قد والله حملت بها صخرة مسرفة يعيي حملها ، لولا بقية من رحمة ـ يا عمر ـ لنفرت عنهن نفرة واحدة لا أراهن ولا يرينني

أفزعني والله الرجل ، ولكني فهمت عنه ما يأتي به . إنه لا يزال يراها بعينيه تحول بينه وبين صغاره . إنه يريدها ويريدهن جملة واحدة ، فإذ ذهبت هي ، فكأنما ذهب منهن الذي كان يراه فيهن . يرحمك الله يا ابن أبي عتيق ! فأما إذ بلغ به حبها هذا المبلغ من اليأس ، فلا والله ما ينجيه إلا أن يحتال ، فقلت له :

أأراك أنسيت ذكر ربك يا أبا محمد ! أترانا نعيش في هذه الأرض إلا بما نرجوه عند الله في غيب الله ؟ فلولا ما تمثله في أنفسنا من الرجاء ، ما نبض لامرئ عرق مما يأخذه من السأم . وأنت ، أفيغني على امرئ في مثل عقلك أن يجعل من مفقود يحبه رجاء يستمسك به ؟ انظرها يا ابن أبي عتيق بين عينيك ، ولا تدع البدن الراحل يغلبك على ما يحضرك من روحها . إنك بعينيها ما عشت ، فلا تحسبن أحزانك التي تبتغي أن تتسلب بها في حياتك ، تجعلها تنظر إليك راضية مطمئنة

لا تشكّن يا ابن أخي ، فوالله إن الجسد ليذهب إلى البلى ، وإن الروح ليخلد ، فما ترضى من يحبك بأمثل من أن تكون في غيبه ما كنت في محضره : « إن القلب ليحزن ، وإن العين لتدمع ، ولا نقول ما يغضب ربنا » وصدق رسول الله . وما ذلك إلا أن نقصر الحزن ، وأن نجعل أقوالنا وأفعالنا مرضاة لمن نحب وطاعة . ولا تستطيلن ما بين الحي والميت ؛ فإنما هي ساعات قلت وإن أطلت لها . يا أبا محمد ! أرض ربك وأرض صاحبتك ، واجهد أن تكون كما أحبت لك ، فإنك عن قليل تلقاها ، فلا يلقها منك إلا ما تعرفه دون ما تنكره . . .

محمود محمد شاكر

هجرة في سبيل الله

للأستاذ محمد عبد الغني حسن



هجرتَ بطاحَ مكةَ والشعابا … وودّعتَ المنازلَ والرحابا
تخذتَ من الدجى يا بدرُ سِترًا … ومن مرهوبِ حُلكته ثيابا
فكيف تركتَ خلفك كلَّ شأنٍ … وخلّيتَ القرابةَ والصحابا ؟
وشرُّ مواطنِ الإنسان دارٌ … يرى من أهلهِ فيها عذابا
يناديهم فلا يلقى سميعًا … ويدعوهم فلا يجدُ الجوابا

صبرتَ وكلُّ داعيةٍ يلاقي … من الأهوالِ ما يوهي الصلابا
تمرُّ بك الحوادثُ وهي كَلْمى … كأنَّ مزاجها الصخريَّ ذابا
فما ألقيتَ من رهبٍ سلاحًا … ولا خلّيتَ من نصبٍ حِرابا
تزيدك كلُّ حادثةٍ ثباتًا … وصبرًا في المواقفِ وانكبابا
أتعرفُ دعوةً لله قامتْ … وكان قوامُها شهدًا مُذابا ؟
سبيلُ الحقِّ قد حُفّتْ بشوكٍ … ولم تُملأ على دعةٍ رُضابا
وما غلبَ الليالي مثلُ قلبٍ … تجرّعَ كأسها عسلًا وصابا

نبتْ بك أرضُ مكةَ وهي أوفى … وأرحبُ في سبيلِ الشركِ بابا
وضاقتْ بالحنيفةِ في إلهٍ … وما ضاقتْ بآلهةٍ جَنابا
أما عُبدتْ بها العُزّى قديمًا … أما شبَّ الضلالُ بها وشابا ؟
لقد وسعتْ من الأديانِ بُطلًا … ولم تسعِ الحقيقةَ والصوابا
ومن عجبٍ تُسيءُ إليك أرضٌ … شببتَ فما أسأتَ بها الشبابا
منازلُ كنتَ تنزلُها طهورًا … وتلقى الوحيَ فيها والكتابا
فما عرفوا عليك بهنَّ نقصًا … ولا أخذوا عليك بهنَّ عابا
تقومُ الليلَ في جنباتِ غارٍ … وتقطعُهُ زكاةً واحتسابا
وتدعو والمضاجعُ غارقاتٌ … بأهليها وتنتظرُ الثوابا
تزلزلُ بالدعاءِ ذُرا «حِراءٍ» … فلولا اللهُ يمسكُهُ لذابا

لقد آذاك أهلُك في حماهم … فكان أذاهمُ العجبَ العُجابا
رموا واللهُ جارُك من أذاهم … فأخطأ سهمُهم راميهم وخابا
فلا ترجُ السلامةَ من قريبٍ … ولا تأمنْ من الأهلِ انقلابا
فربَّ أباعدٍ كانوا رجاءً … وربَّ أقاربٍ كانوا مُصابا

أمينَ اللهِ أهلُك قد أساءوا … ولجَّ لسانُهم إثمًا وعابا
وقالوا الساحرُ الكذّابُ حاشى … لربِّك لم تقلْ يومًا كِذابا
وكانوا من صفاتك في يقينٍ … فكيف يرون دعوتك ارتيابا
ولكنْ دولةُ الأغراضِ تُعمي … وتُلقي فوق أعينها حجابا
لقد جحدوا ضياءك وهو سارٍ … يشقُّ البيدَ أو يطوي الهضابا
كأنَّ من الهدى فيه سراجًا … ومن وضحِ اليقينِ به شهابا
ومن تكنِ المآربُ ضلّلتْهُ … يرى في الحقِّ زيغًا واضطرابا
يعيبُ ذوي المبادئِ وهو أهلٌ … لأنْ يُرمى وأجدرُ أن يُعابا

أمينَ اللهِ قومُك قد أساءوا … وطار صوابُهم ومضى وغابا
لقد عادوك موجدةً وكِبرًا … وربَّ مكابرٍ فقد الصوابا
مضوا يستكثرون عليك فضلًا … من اللهِ الذي يُعطي الرِّغابا
هو الحسدُ الذي أكلَ البرايا … وصيّرهم على أنسٍ ذئابا
يكادُ الحقدُ يمسخُهم قرودًا … ويخلقُ فيهمو ظفرًا ونابا
ولمّا أن قدرتَ عفوتَ عنهم … ولم تفرضْ على الجاني عقابا

روح الهجرة

للأستاذ محمود البشبيشي



الليل ينشر على الكون وحشة ورهبة ، والظلم يغمر النفوس رعدة ورهبة ، ولكن الحقيقة المؤمنة تتطلق عزمة ورغبة . تنظر إلى أحابيل الشيطان نظرة القدرة القادرة ، وتتأمل أباطيل الباطل بثقة الحكمة النافذة ، وليكن ما يكون !

فى بطون الوهاد وأعالى الجبال عيون تترصد ، وفى خفايا المنافذ وحفايا البطاح أرصاد تترقب ، وفى جوار كل جدار ووراء كل باب آذان تتسمّع ، ولكن الحقيقة المؤمنة فى قلب الرسول تتوثب عزمة ، وتتوهج قوّة . وليكن ما يكون !

الشيطان قد فعل فعله فى النفوس الضالة ، والأحقاد قد بلغت الغاية فى القلوب الغُلْف ، ولم تبق بارقة تسطع من خلال رؤى الآمال !

كل شئ فى الجزيرة يحس أن شيئاً سيحدث ، وأنه سيكون حدثاً عظيما ... كل شئ فى الجزيرة يدرك أو يكاد أن أمراً ستتفتّح عنه مغاليق الغيب ، وأنه سيكون أمراً خطيراً . ولكن ما من شئ كان يعلم أن ظنون الكفار المتلبدة بسواد النيات ستنهار كخيال الوهم . ولكن ما من شئ كان يعلم أن أمانى الرسول الكريم ستتوج بالنصر كحقيقة الواقع ... ولقد كان ما كان

وانطلقت الحقيقة المؤمنة من قُيود الباطل ، وانبثق النور السماوى من خلال سحب الضلال . إن محمداً قد هاجر ، وكتب للرمال أن تقبل الخطا المباركة ، وللغار أن يتيه على أعظم القصور عزة وفخامة . إن محمداً قد لاذ به من كيد المشركين

أجل لقد كان ما كان . بل ما كان يجب أن يكون

فأتلق فى جبين الزمان نور جديد . فكان يوم الهجرة المباركة . وكان للاسلام عيداً ، وإنه لعيد مجيد . فلئن اعتزّت الأمم بأعيادها المختلفة ، وخلّدتها بأيام من عُمر الزمن محدودة ، والتفتت إليها من حين إلى حين تعيد إلى ذكرياتها القوة ، وتجدد ما تقادم من حيويتها ، وتبعث فيها الروح بالاحتفال بها ... أجل لئن اعتزت الأمم بأعيادها وحرصت كل الحرص على أن تعيد إليها القوّة بالاحتفال . إن الإسلام ليحتفل بعيد الهجرة ... لا ليعيد للهجرة حيوية ضعفت ، ولا ليجدد للهجرة ذكريات تقادمت ، ولا ليبعث فى الهجرة روحاً خمدت ، بل ليستمد القوة من عزمة الرسول صاحبها ، ويقبس من أنوار عيدها أقباس الحيوية السماوية القادرة . وإن أعياد الأمم مهما اختلفت أغراضاً ، وتفاوتت مقاصدَ ، لا تزيد على أن تكون رمزاً لناحية واحدة مجيدة اجتماعية أو غير اجتماعية ، فردية أو غير فردية ، على حين تجتمع فى عيد الهجرة أعياد وأعياد

فى عيد الهجرة أعياد . ومن أعياده الرائعة المُتألقة الوضيئة عيد الوفاء فى أروع مظاهره ، والفداء فى أبهى صوره ، والصبر فى أكمل معانيه ، والجهاد في أعظم غاياته ، والإيثار فى أنبل مواضعه ، وحب الوطن فى أقوى حالاته ، والثبات على المبدأ فى أثبت دعائمه

لنا فى الهجرة مثال للوفاء يحتذى ، وإنه لمثال يتألق حقاً فى رفيق الرسول أبى بكر الصديق ؛ فقد كانت براثن الخطر تترقب ، ومخالب الشيطان تتوثب ، وكل شىء فى شعاب الطريق ومسالكه يستر خطراً يكاد يهجم ، فالأحقاد تلهب الصدور ، والصدور تضطرب بنزوة الدم وثورة الضغينة

أجل كان كل هذا ولكن الصدّيق كان وفياً . ولكن

دَعَوْتَ لَهُمْ بِمَغْفِرَةٍ وَصَفْحٍ ... فَكَانَ دُعَاؤُكَ الْعَالِى مُجَابا
مَلَكْتَ رِقَابَهُمْ عَفْوًا فَلاَنُوا ... وَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ مَلَكَ الرِّقَابا

خَرَجْتَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهْىَ دَارٌ ... شَهِدْتَ بِهَا عَلَى الْكُفْرِ انقِلاَبا
لَقَدْ آوَاكَ أَهْلُوهَا وَقَامُوا ... لِيُنْسُوكَ الرَّحِيلَ وَالاغْتِرَابا
وَجَدْتَ بِهَا مِنَ الأَنْصَارِ أَهْلاً ... وَزِدْتَ بِهِمْ عَلَى الْبُعْدِ اقْتِرَابا
وَرُبَّ أَبَاعِدٍ لَكَ قَدْ أَجَابُوا ... وَمَا سَمِعَ الْقَرِيبُ وَلاَ أَجَابا
رَجَوْتَ بِهِمْ لِدِينِ اللهِ نَصْرًا ... وَلَمْ أَرَ رَاجِيًا فِى اللهِ خَابا

محمد عبد الغنى حسن

الصديق كان ثبتاً ؛ ولكن الصديق كان قد انتضى للأمر عزائمه وتغلغلت في روحه روح الوفاء فأبى أن يكون هيابة نكسا . ووجد الوفاء في قلبه أرضاً طيبة فأينع وأثمر ، فذلل له كل مستصعب . فكان خير مثال لمصابرة المكاره، ومعالجة البأساء . تحمل في سبيل الوفاء وعثاء الطريق ولم يضطرب قلبه لمخاوف الرحيل في هـذا الجو الملبد بالأخطار . فياله من رجل ترك الأهل والمال والولد ورافق الرسول الكريم لغاية لا يعلمها إلا الله . مثل هذا الوفاء جدير بأن نقيم له الأعياد لنستمد منه أروع المعاني ، ونهرع إليه كلما دهمتنا الأحداث ولاحت لنا الخطوب

للهجرة أعياد ، ومن أعيادها عيد الفداء

وإن لنا من علي كرم الله وجهه لمثلا للفداء حياً

وما ظنك بالرجل الذي يعلم علم اليقين أن الموت يلمع في أسنة السيوف بباب مرقده ، والهلاك يترصد في كل زاوية من دار هو فيها سجين أو شبه سجين ؟ ما ظنك برجل يحس بالخطر يتوثب ويترقب ، وهو في موقف يؤرق العين ويعذب القلب ؟ فالكفار بالباب قد أعلنوها حرباً مصرحة مستعلنة ، والكائدون قد نصبوا الحبائل ومدوا الشباك يترقبون الرسول الكريم ... وهيهات ، فإن علياً هنالك ، وإنه لنائم مكانه

أيها الفداء العجيب في شخص علي ، إنك لخير مثال تتطلع إليه القلوب في مثل أيامنا العجاف

للهجرة أعياد ، ومن أعيادها عيد الصبر

ومن ذا الذي صبر صبر الرسول على المكاره ، وتحمل من الأعداء والأهل ما لا تتحمله النفوس البشرية ؟ ... في ظلال الإرهاب سار ، وبليل الأخطار أدلج ؛ رأى الموت فلم يفزع ، وكيف تفزع النفس المؤمنة ، ومن فيضها اقتبس الإسلام قوة جهاده ، واستمدت العروبة عزمتها القادرة وقوتها القاهرة ؟ من ذا الذي سواه يستطيع أن يخلع على مكاره الأيام من روحه المؤمنة روحاً تسهل كل صعب وتنال من كل مستحيل ... ؟

يا عجباً ! لقد استطاعت القوة المؤمنة أن تفك الحبالة وتسلك إلى النفوس في جو كانت تسير فيه قالة السوء كومض البروق ، في جو اجتمع فيه الأشرار على باطل وتفرقوا عن كل حق ... ومن صبر الرسول الكريم وصبر أصحابه الأبرار ما نزال نستمد العون كلما طرقنا من الحوادث أمر طروق

للهجرة أعياد ، ومن أعيادها عيد الجهاد

وجهاد المؤمنين لا ينقصه الدليل ليصدق ، ولا يتطرق إليه الشك فينقص ؛ فلقد كانت الحقيقة المؤمنة في نفوسهم قوة ، وفي قلوبهم حيوية ، وفي سيوفهم قدراً عاصفاً ، وفي عيونهم أملاً يعلم أنه محقق!

جاهدوا وثابروا فنالوا ما أرادوا ، وبعون الله كشفوا عن القلوب غطاء الجهالة ؛ فتناثرت أباطيل الضلال أمام يقينهم ، وانطمست شمس الضلالة الزائفة أمام إشعاع إيمانهم ، وسقطت آمال المنافقين أمام إعصار الحق ، كما تتساقط أوراق الدوحة الهزيلة عند ما تطيح بها العاصفة

فإلى جهاد المؤمنين في فجر الإسلام توجهوا أيها المسلمون في أقطار الأرض ، واستلهموا من معانيه الحيوية معاني العزة القومية ، والقوة والإباء ، والصبر والجلاد

تلك بعض أعياد الهجرة ، ومن أعيادها عيد الإيثار وحب الوطن والثبات على المبدأ

أما الإيثار ، فينطق به الأنصار عند ما نسوا الأثرة واستقبلوا المهاجرين بكرم اليد وكرم القلب، وقاسموهم الخير والأرض، وعطفوا عليهم عطف العالم بما لاقوا ، المقدر لما تحملوا ، المعجب بما أظهروا

وأما حب الوطن والحنين إليه ، فيتألق فيما كان يضطرب بين أضلاع الرسول الكريم وهو في الغربة يناضل ويناوص ويستعد ويستجم ليرجع إلى الوطن الذي ترعرع فيه ، إلى الوطن الذي غدر به وحجب القلوب عنه ، فهـو يحن إلى الحج ، فيفاوض المشركين رحمة بالأهل ، وحرصاً على الدم من أن يهدر ... وإنه لدم غال عزيز. أفليس هو دم الأعمام وأبناء الأعمام ؟

وأما الثبات على المبدأ ، فيظهر ناصعاً في كل مراحل الجهاد ، في صبر الرسول على الكيد، وتحمل المهاجرين لألم فراق الأهل والمال والولد

وبعد ، فقد قهرت القوة المؤمنة القوة الضالة ، وقهرت حقيقة الحق رياء الباطل ، وارتدت السهام إلى نحور الكائدين ، وانطلق النور السماوي من روح الرسول ، فبدد سحب المنافقين ، وطوى ظلال الشيطان

ولئن استمدت أعياد الأمم القوة بالاحتفال ، إن عيد الهجرة ليجدد حيوية الأمم المسلمة ... ولئن كانت الأعياد وليدة تاريخ الأمم ، إن تاريخ الأمم الإسلامية وليد عيد الهجرة

أيها العيد ، في ظلالك أعياد ، وإنها لأعياد تعتز بها العروبة والإسلام . جمعت الوفاء والفداء ، والصبر والجهاد والإيثار وحب الوطن ، والثبات على المبدأ والعقيدة

إن كنت في لغة الحياة وركبها يوماً فكن يا ابن الخلود عهودا

« المنصورة » محمود البشبيشي